مركـز الجزيـرة للدراسـات
ALJAZEERA CENTRE FOR STUDIES

تغطية الجزيرة للحرب الروسية الأوكرانية

يوميات مراسلين على خط النار

تأليف
مجموعة من مراسلي الجزيرة

تغطية الجزيرة للحرب الروسية الأوكرانية

يوميات مراسلين على خط النار

تأليف:

مجموعة من مراسلي الجزيرة



مركز الجزيرة للدراسات

ALJAZEERA CENTRE FOR STUDIES

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

النسخة الأولى: أغسطس/آب 2022 م - 1444 هـ

مركز الجزيرة للدراسات
ALJAZEERA CENTRE FOR STUDIES

الدوحة - قطر
هواتف: 4930181 -4930183 -4930218 (+974)
فاكس: 4831346 (+974) - البريد الإلكتروني: E-mail: jcforstudies@aljazeera.net

التجهيز وتصميم الغلاف: **قطاع الإبداع الفني بشبكة الجزيرة الإعلامية**

المحتويات

مقدمة 5

محمد المختار الخليل

تجارب لا تُنسى 7

إلياس كرَّام

كييف في يوم الحرب الأول 17

المعتز بالله حسن

كنا هناك ساعة الصفر 31

أمين درغامي

المقاومة الأوكرانية 43

عامر لافي

عادة سبوتنيك 51

نور الدين الدغير

ميديكا الفاضلة 61

ستير حكيم

جورناليستكا.. جورناليستكا 73

سلام هنداوي

من أقصى الغرب.. إلى الحرب 85

حسَّان مسعود

حياد الجزيرة 97

عمر الحاج

حكايات المعبر.. لاجئون ليسوا كغيرهم!.................................109

محمد البقالي

قصة الرقم 2923..125

سامر يوسف

مقدمة

هذه تجربــة جديدة نخوضها في مضمار التعريف بالإعلام مربوطًا بأعلام المراسلين ممن تصدّوا للتغطية في أجواء الحروب، وهو نمط من الكتابة الخاصة دعت له أسباب في مقدمتها:

- توثيــق تجربــة الجزيرة فــي جزء من عملها الذي لا تبــارَى فيه وفقًا للمتابعين المحترفين؛ وهو القدرة على تغطية الأحداث المفتوحة، وما يتضمنه ذلك من شجاعة مراسليها وموظفيها، واستعدادهم للتغطية في أجواء الموت الرهيبة.
- تقديــم تجربة حية بأقلام خائضيها ســاخنة متدفقة؛ فقد حرصنا على أن يصدر هذا الكتاب في أجواء الحرب، ولـــمّا يخلع الزملاء الكَتَبَة خوذاتهم، ولـمّا ينفضوا عنهم غبار الرحلة، ويتخلصوا من وعثاء سفر التغطيــة وأدخنة الجبهة المشــتعلة.. باختصار لم يخلعوا لأمة الحرب بعد.
- ممارسة نمط جديد من الكتابة التاريخية، فالصحفي وهو يقدم الحقائق من ســاحة الحــرب؛ يهيّئ فعلًا المــادة التي سيســتقي منها المؤرخ المحتــرف مادته غدًا، وأيّ كتابة عن هذه الأجواء التفصيلية لمؤرخي الغد تجعلهم يعيشون اللحظة أولًا بأوّلَ، ويفهمون سياقات الأحداث، فضلًا عن تعليلها على الوجه الصحيح.

هذه المادة ثريّة في محتواها؛ ثراءَ خبرة من شــاركوا فيها، رجالًا ونســاءً، وكســبًا مهنيًّا، وتمرّسًا بساحات العمل المخيفة التي يختصرها البعض في صفة المراسل الحربي تأثُّرًا بترجمات سريعة، والواقع أن الصحفي المراسل أعظم من أن يكون مجرّد مراسل حربي...

يُقبل هذا المراســل على الميدان حقيقةً لا مجازًا، وحساباته المتيقّنة تقول إنه يمكن أن يكون من أول ضحايا هذه الحرب، نظرًا إلى خطورة المجال الذي لا تحميه فيه شارة الصحفي ولا مهنيته، فهو جدير بوصف شهيد المهنة الحيّ..

يُقبل على العمل وفي ذهنه أنه يمكن أن يتحول إلى خبر عاجل، بدل نقل ذلك الخبر الذي يترقبه المتسمِّرون أمام الشاشات.

يُقبل بقلب قويّ، هو قلب الإنسان الذي يرى عنف الإنسان على أخيه، ويرى حرص الطرفين على القتل، إن لم يكن التشفّي، ومع ذلك فهو يملك من القوة النفسية ما يجعله يقف مع نقل الحقيقة دون أيّ نقص أو تلوين، فهو بهذا يستحق وصف الشجاعة الصحفية الحقّة.

ثم، وهو ينقل تلك الأحداث، لا يغيب عنه قلب الإنسان الذي يذوب حزنًا وكمدًا على ضحايا الحرب من بشر يُقتل وشجر يُقتلع وبناء يُدمّر وأرض تُحرق.. وباختصار حضارة تنهار كلّ أساساتها، فلا يملك إلا أن ينحاز للإنسان وقضاياه، فهو بذلك يستحق وصف الصحفي أو المراسل الإنسان.

ولِمَ نستطرد في الوصف والتعليل؟! وبين أيدينا مادة هي خير ما يوضح ما نرمي إليه في هذه التقدمة العجلَى، فعودوا إليها مستأنسين لحديث، ومنفعلين بحقائق، ومعجبين ومقدرين لشجاعة كتابها.. ففيها مغناة عن كل وصف، وغناء من كل تقرير أو تحرير.

فهلمَّ إلى هذه المائدة الملهمة، ففيها ما يشتهيه الصحفيون، ويروي ظمأ عاشقي مهنة المتاعب.

والله الموفق

د. محمد المختار الخليل

مدير مركز الجزيرة للدراسات

تجارب لا تُنسى

إلياس كرَّام



لم يكن أمرا اختياريا أن أكون مراسلا حربيا، ولعل ذلك لم يكن طموحي يوما، رغم أنني مغرم بالحياة العسـكرية مذ كنت طفلا صغيرا، بيد أن ظروف المنطقة المتقلبة بين حرب وحرب ومواجهة وأخرى، خاصة منذ التحاقي بقناة الجزيرة عام ألفين وثلاثة، قد تركت آثارها وصقلت شخصيتي ودفعتني، مرغما أو ربما مقبلا، إلى خانة المراسـل الحربي. صفة ترافقني منذ نحو عقدين من الزمن حيث برزتُ في تغطيات الحرب على لبنان عام ألفين وستة، وفي متابعة الحـرب الأهلية في سـوريا من جهة الجولان المحتـل، وكذلك في الحروب المتتالية التي شـنتها إسـرائيل على قطاع غزة المحاصر، فضلا عن مواجهات لا حصر لها في القدس ومدن الضفة الغربية المحتلة.. فقد كنت شـاهدا على ذلك جميعا.

لقد أضحى اسمي ووجودي على أي من جبهات القتال رديفا للحرب، أو حتى نذير شؤم لدى بعض من يبحثون عن الدعابة. فعندما أوفدتني قناة الجزيرة إلى أوكرانيا لتغًطية التوتر الحاصل مع روسـيا منذ مطلع شـهر ديسمبر/كانون الأول من عام 2021 تنبه المتابعون على وسـائل التواصل الاجتماعي لوجودي الغريب هناك؛ على أرض العجم، وسألوا عن سبب مغادرتي فلسطين، بل جزموا بأن وجودي هناك يعني أن الحرب واقعة لا محالة، مما شـكَّل بحد ذاته عبئا ثقيلا على كاهلي. فالحقيقة أنه لا أحد يرغب في أن يَزجّ بنفسه في أتون حرب من المؤكد أنها ستكون ضروسا.

كنت طيلة الوقت في حالة صراع مع الذات؛ أحاول أن أقنع نفسـي وأنا أتنقـل مـن جبهة إلى أخرى، في إقليم دونبـاس وبين مدينة وأخرى في مناطق أخـرى من أوكرانيـا، بأن الحرب لن تقع. أقول لنفسـي: كيف تقع حرب في أوروبـا؟ لا بـد أن يتوصل أطراف الصراع إلى حل سـلمي يوقف قرع طبولها التي نسمعها هنا وهناك.

والحقيقة أن قناة الجزيرة أحسـنت فعلا بإيفاد مراسـل إلى منطقة التوتر في وقت مبكر جدا؛ قبل اندلاع الحرب، فسـبقت بذلك القنوات العالمية، لأن ذلك سيكون له أثر في قادم الأيام عندما تندلع الحرب، وذلك من حيث تحضير

وإعداد المشاهد لفهم طبيعة التوتر، ومعرفة أسبابه، وتقدير تداعياته، ليس على طرفي الصراع فحسب بل على العالم بأسره. فعند وقوع الحرب لن يكون ثمة متسع من الوقت للخوض في أسبابها، بل سيكون التركيز منصبا على سيرها، ورصد تداعيتها. وكان عليَّ بوصفي مراسلا قضى تسعة عشر عاما من العمل في فلسطين أن أتأقلم سريعا مع الواقع الجديد ميدانيا وسياسيا، وأن أحفظ أسماء مدن جديدة صعبة النطق، وأسماء مسؤولين سياسيين وعسكرين لم أنطق بأسمائهم من قبل، دون الوقوع في خطأ محرج. لقد كان تحديا جديدا أشبه بتغيير الذاكرة دون تغييبها.

اجتهدت كثيرا في الأيام الأولى من إيفادي إلى أوكرانيا في التعرف على محاور الصراع، ودراسة أسبابه، وتتبع جذوره، وسبر أغوار العلاقات الروسية الأوكرانية قديما وحديثا. وهو أمر بدهي يجب على أي مراسل ينتقل في مهمة عمل خارجية أن يفعله، إذ سيسهل ذلك عليه مهمة التغطية، ويجعل شرحها للمشاهد أمرا سهلا يسيرا. فكنت أواظب يوميا على قراءة المقالات التحليلية، ومتابعة عديد من المواقع الأوكرانية المحلية، وأحاول أن أفرِّق بين الغث والسمين، وكنت أحاول التوقف عند تصريحات ومواقف لسياسيين وعسكريين ودبلوماسيين أوكرانيين، مما ساعدني على التعمق في فهم مختلف المواقف، وبلورة جملة من النقاط الهامة لاستقراء الأزمة، ومعرفة خفاياها وجوانبها المتعددة.

والحقيقة أن هذه المتابعة الحثيثة ساعدتني كثيرا في فهم منعطفات مهمة في الأزمة الروسية الأوكرانية، وسهلت عليَّ مهمة نقل الأخبار، وتحليلها، ومحاولة تبسيطها للمشاهد العادي.. وفي غضون شهرين ونصف قبل الحرب تمكنت من إعداد كمّ كبير من التقارير الميدانية التي عكست جوانب الصراع، لا سيما في إقليم دونباس، فضلا عن تقارير سياسية وعسكرية واقتصادية واجتماعية وحتى سياحية كانت كفيلة بأن توفر لمشاهدي الجزيرة قاعدة بيانات عن كثير من الأمور والجوانب المرتبطة بالصراع، مدعمة بخرائط دقيقة ومعلومات غنية، وغرافيكس جذَّاب.

وهكذا عندما اندلعت الحرب في الرابع والعشرين من فبراير/ شباط 2022

كان المتابع لقناة الجزيرة قد اطلع على كم كبير من المعلومات التي مكنته من أن يفهم الأسباب والخلفيات التي أدت إلى اندلاعها. ورغم أنني كرهت وقوع الحرب في نهاية المطاف فإنني كنت متصالحا مع ذاتي لما قدمته للمشاهد سواء يوم الحرب أو بعده؛ حينما اتخذت التغطية أبعادا إنسانية وعسكرية مختلفة جدًّا.

كانت المسافات الطويلة التي قطعتها طيلة فترة وجودي في ميادين المعارك بأوكرانيا، التي امتدت على مدى ثلاثة أشهر ونصف، من أشد وأقسى ما واجهني من متاعب، وأثقلت كاهلي وكاهل زميلي المصور لبيب جزماوي، رفيق الدرب. خاصة لمن اعتاد مثلي المسافات القصيرة نسبيا في فلسطين؛ إذ كنا نقطع يوميا مسـافات تتراوح بين 350 كيلومترا و500 كيلومتر على أقل تقدير، متنقلين من مدينـة إلـى مدينة ومن قرية إلى قرية في إقليم دونباس الذي قطّعت حرب عام 2014 أوصاله كليًّا وضاعفت مسـافات التنقل بين مناطقه. أذكر أنني كنت يوما أعد تقريرا عن ضحايا الحرب ممن تعرضوا لإصابات جرَّاء الألغام أو مخلفات الصواريـخ التي لم تنفجر فـي مواجهات عام 2014، وقد كانت عناصر التقرير جاهـزة ومتكاملة باسـتثناء أن أعثر على أحد ضحايا هـذه الألغام، وكان هذا الشـخص يسـكن في ريف مدينة ماريوبول، حيث تطلّب السـفر إليه من مدينة كرامتورسـك يوما كاملا تقريبا؛ من السـاعة الثامنة صباحا حتى الحادية عشرة ليلا، وذلك من أجل اسـتخدام مداخلة له في التقرير لا تتعدى عشـرين ثانية. لقد كان أمر التنقل منهكا جدا، لا سـيما في قرى نائية تكاد تخلو من الناس، حتى إننا تسـاءلنا في أنفسـنا ونحن نسير كل هذه المسافة: من يعيش هنا؟ هل حقا ثمة بشر؟ هل نحن على الأرض أصلا؟!

وكان "الجنرال برد" من أشد المتاعب والمآسي التي واجهتنا خلال التغطية؛ حيث كانت درجات الحرارة تتدنى إلى 18 درجة تحت الصفر وأحيانا أكثر من ذلك، خاصة حينما تصاحبها عواصف ورياح وثلوج كثيفة كانت تجعل الشخص الواقف أمام الكاميرا يتسمَّر رغم كل طبقات الملابس التي يرتديها. كنت أحيانا أصل إلى حد عدم الشعور بوجهي الذي كان يبدو كأنه أصيب بالشلل من شدة البـرد. أذكر يوما، وأنا في ضواحي مدينـة ماريوبول، أني اضطررت إلى إِعادة تسـجيل الوقفة أمام الكاميرا نحو عشـرين مرة، إذ لم أكن أقوى على أن أُطبق الفك العلوي على الفك السفلي، أو أن أنطق مخارج الحروف على نحو سليم

من شدّة البرد الزمهرير. وهكذا كان الحال في خاركيف بشمال شرق أوكرانيا، التي دخلتها وهي خاوية على عروشــها تحت قصف صاروخي ومدفعي شديد، ووسط عاصفة ثلجية أعاقت تحركنا.

كان الدخــول إلى مدينــة خاركيف يتطلب كثيرا من الجرأة والاســتعداد والتحضير المسبق، فضلا عن التغلب على خوف المساعد والسائق الأوكرانييْن اللذين رفضا بادئ الأمر التوجه إلى هذه المدينة المنكوبة.

توجهنا يومها من مدينة دينبرو شمالا إلى خاركيف، ولا أبالغ إن قلت إننا كنا وحدنا من يســلك الطريق إلى الشــمال صوب خاركيف بينما كانت الجهة المقابلة للطريق الرئيســي نحو دينبرو جنوبا تزدحم بسيارات وحافلات الفارين منها بسبب الحرب الدائرة هناك. أن تدرك أنك تزج بنفسك في ميدان المعركة بينما يهرع الآخرون هربا وخوفا على حياتهم هو بحد ذاته مبعث خوف.

عندما دخلنا إلى خاركيف واجتزنا أول حاجز عســكري كان مشهد الدمار هو الطاغي.. شــوارع فارغة تماما من المارة إلا من بعض الأفراد هنا وهناك. أينما وليت نظرك تجد محالّ تجارية مدمرة ومنازل اشتعلت فيها النيران. هل هذه هي خاركيف التي دخلتها قبل الحرب ببضعة أيام وكانت تضج بالحياة والناس وصخب السيارات؟ أرى أمامي مدينة أشباح، رائحة الموت والنار تنبعث من كل مكان.. ســيارات متفحمة على قارعة الطريق، زجاج نوافذ متناثر في كل حدب وصوب، مياه متجمدة في أنابيب أصابها القصف.

بالنســبة لي كان الوصول إلى خاركيف بحد ذاته إنجازا صحفيا كبيرا في أيــام الحــرب الأولى، لذلك لم أفكر كثيرا في الخوف أو الموت، بل في كيفية الظهور سريعا على الهواء لنقل أهوال ما كانت عيناي تراه إلى العالم كله. لقد كان طاقم الجزيرة من أوائل من دخل خاركيف بعد اندلاع الحرب وبثَّ منها، كما كانت القناة سباقة قبل ذلك في مدن وقرى إقليم دونباس ومدن ماريوبول ودينبرو وكرامتورسك وسلافيانسك وغيرها كثير.

قبل أيام من وقوع الحرب كانت كل المؤشرات تدل على أن الأمور تتجه نحو تصعيد خطير، وأن وقوع الحرب أصبح قاب قوسين أو أدنى. كان مكوثي فترة طويلة في إقليم دونباس قبل موعد الحرب عاملا إيجابيا أحسب أنه مكنني

من قراءة الميدان على نحو سليم، وهو ما ساعدني على توقع ساعة الحرب. إن القدرة على استطلاع الوضع الميداني واستقراء متغيراته مسألة مهمة لأي مراسل حربي أو ميداني.

قبل الحرب بيوم كنت أقوم بجولة رفقة قوة عسكرية أوكرانية على تخوم بلدة بوباسنا في إقليم دونباس. يومها أيقنت تماما أن تغييرا عسكريا كبيرا قد طرأ فعلا على الخطوط الأمامية للجيش الأوكراني، فقد لاحظت ازدياد أعداد الشاحنات المحملة بالدبابات والوقود والذخيرة والأغذية والحطب، التي كان يُدفع بها إلى الخطوط الأمامية للجبهة، وكان ذلك مؤشرا على استعداد القوات الأوكرانية للمكوث وقتا طويلا في ميدان المعركة. لقد نجحت يومها، وبعد جهد كبير في إقناع القائد العسكري المسؤول بأن أظهر في بثٍّ مباشر من داخل أحد الخنادق العسكرية، وهو أمر يحظره الجيش الأوكراني لكيلا يكشف الطرف الآخر مواقعهم واستحكاماتهم من خلال إشارات الشرائح الخلوية المستخدمة في جهاز البث. لقد كانت قناة الجزيرة يومها أول قناة عالمية تبث من خنادق الجيش الأوكراني بثًّا مباشرا. كنت يومها في حالة انفعال شديد بهذا الإنجاز، وأيضا بسبب البرد الشديد والقصف المدفعي الذي لا يتوقف من حولنا والغوص في وحل لزج يعيق حركتنا. قلت يومها على الهواء وأنا داخل هذا الخندق العسكري: إنني أشعر وكأني في فيلم من أفلام الحرب العالمية الثانية التي اعتدت مشاهدتها. جزمت يومها بأن السؤال لم يعد عما إذا كانت الحرب سوف تندلع أم لا، بل أصبح من الآن فصاعدا: متى ساعة الصفر؟ وبالفعل، بعد أقل من أربع وعشرين ساعة من هذا البث وقعت الحرب!

لقد كان أمر الوصول إلى المواقع المتقدمة في بوباسنا يومها محفوفا بكثير من المخاطر والتحديات، حيث مكثنا رفقة القوات الأوكرانية نحو ساعة ونصف، نتنقل رويدا رويدا وسط إحدى الغابات، ونتفادى سقوط القذائف المدفعية، التي كانت تسقط حولنا، حتى تمكنا أخيرا من الوصول إلى الخطوط الأمامية على خط وقف إطلاق النار.

ومع وقوع الحرب شكلت الظروف المناخية القاهرة والطبيعة الجغرافية لأوكرانيا، خاصة في الجانب الشرقي منها تحديا إضافيا، فنحن نتحدث عن

مناطق مفتوحة ومروج وسهول واسعة تكسوها الثلوج على مدّ النظر، وكأنها صفحة بيضاء دون جبال أو تلال أو ألوان ترشدك إلى قبلتك أو تساعدك على تحديد موقعك أو تدلك على المواقع التي يقصفها الجيش الروسي أو تلك التي وصلت إليها قواته في زحفها السريع داخل الأراضي الأوكرانية في أيام الحرب الأولى.

لقد كان ذلك من أخطر الأمور التي واجهتنا؛ فأنت تسير في مناطق وكأنك تائه أو أسير بيد السائق والمساعد المرافق لك. لقد اعتدت في تغطية الحروب والمواجهات على جبهتي سوريا ولبنان أن أستدل على الطرف الآخر بالطبيعة الجغرافية وخاصة الجبال والتلال، أما هنا، في دونباس، فلا شيء من هذا البتة. فراغ شاسع تطلب منا اتخاذ مزيد من إجراءات الحيطة والحذر، والتأكد دائما في كل خطوة من أننا لا نجتاز مناطق خاضعة لسيطرة القوات الروسية، وأن نتفادى أن نعلق وسط منطقة تتعرض لقصف متبادل من الطرفين.

منذ اليوم الأول لوصولي إلى أوكرانيا اكتشفت أن قلة من الأوكرانيين مهتمون بالشؤون السياسية والعسكرية والصحافية للبلاد، وكان البحث عن مساعد ومرافق محلي يتقن اللغة الأوكرانية والإنجليزية في آن معًا أمر في غاية الصعوبة، وإذا وجدتَ شخصا كهذا فستكتشف سريعا أنه لا يمتلك أي حس صحفي ولو في الحد الأدنى، وبوصفي مراسلا عاش وخاض حروبا ومواجهات من قبل فقد كان عليَّ أن أوجّه مرافقي طيلة الوقت من أجل الحصول على المعلومة وعلى الأخبار والمقترحات التي يمكننا أن نحوّلها إلى تقارير تلفزيونية من الميدان، وإلا فلن ننجز شيئا. كان هذا بحد ذاته أمرا مرهقا ومبعث قلق دائم بالنسبة لي؛ إذ كان عليَّ أن أقدم لمساعدي مقترحات لتقارير ميدانية كي يقوم بالبحث والتقصي عن عناصرها. المهم أنني وُفِّقت في الحصول على هذا المرافق، ولكن في اليوم الأول لاندلاع الحرب وأنا في عزّ الاحتياج إليه إذا به يفرّ عائدا من كراماتورسك إلى العاصمة كييف بادعاء أنه استُدعي للخدمة العسكرية في صفوف الاحتياط. قضيت أياما بدون مساعد محلي، لكن ما خفف من تأثير هذا الأمر هو وجودي المسبق في إقليم دونباس لفترة طويلة كما قلت آنفا، وحرصي على أن أحتفظ لنفسي بمصادر معلومات، فضلا عما جمعته من معطيات أساسية عن الصراع.. كل ذلك مكنني من أن أستمر دون أن يتأثر عملي

الصحفي. إن هذه التجربة بحد ذاتها تؤكد أن المراسل يجب ألا يكون أسيرا لأي مساعد أو أي جهة أخرى؛ بل عليه أن يكون مستقلا وقادرا على الاحتفاظ لنفسه بمصادر معلوماته الخاصة.

ومع ذلك فلا يمكن أن يستغني المراسل مدة طويلة عن مرافق محلي يتقن اللغة الأوكرانية، فهو مفيد جدا للتنقل والتعامل في منطقة تشهد حالة حرب، وتنشتر بها في كل مكان حواجز الجيش الأوكراني، والقوات الخاصة، والحرس الوطني. ومع استمرار الحرب أخذ المتعاونون المحليون (الفكسر) يلعبون دورا جديدا لا يمت إلى الصحافة بصلة؛ إذ اكتشفتُ مبكرا أن المتعاون يقوم بدور الرقيب العسكري الذي يحاول إعاقة تقدمنا أو منعنا من تصوير مواقع عسكرية أو تحركات لقوات الجيش الأوكراني، وكان عليَّ أنا وزميلي المصور لبيب أن نخوض حربا من أجل منع دور الرقيب العسكري الذي فرض نفسه علينا دون استئذان. كان لا بد لنا أن نفرض موقفنا، وأن نصرّ على أن يتحرك المتعاون معنا لمساعدتنا لا أن يكون عائقا أمامنا، وكنا نضطر لحثه دائما على ألا يقول "إنَّ هذا مستحيل، وذاك غير ممكن"، بل أن يسأل ويستفسر ويطلب. وكنت مضطرا إلى أن أصرّ على موقفي حتى لو اضطررت إلى أن أبقى أنتظر في موقع ما ثلاث ساعات أو أكثر لكي أحصل بعدها على موافقة الجيش، وذلك عن طريق الإقناع الذي تعلمته من عملي الميداني بفضل هذه القاعدة الذهبية " كن لطيفا ودودا تحصل على ما تريد". وهذا بالفعل ما حصل. ففي غابات مدينة دينبرو انتظرت أكثر من ثلاث ساعات الموافقة على تصوير الاستحكامات العسكرية هناك. كما حصل أيضا في زباروجيا حينما رغبنا في الوصول إلى أقرب نقطة للمفاعل النووي الذي أصيبت إحدى المنشآت فيه بقذيفة صاروخية قبل ذلك بيوم.

لقد حاول المتعاون أن يقنعنا بأن أمر الوصول إلى المفاعل النووي مستحيل، لكنني كنت مصمّما على الذهاب. كنت حادّا وحاسما وقلت ساعتها: من يرد أن يرافقني إلى زاباروجيا فليكن جاهزا عند السابعة صباحا على مدخل الفندق. ورغم أن آخر حاجز عسكري استوقفنا ومنعنا من مواصلة السير فإنني تمكنت من خلال الحوار والجدال مع القائد من أن أقنعه بالسماح لي بالمرور، بل بمرافقتنا إلى الموقع أيضا. إن الإصرار والمخاطرة المحسوبة هي من الأمور الأساسية لتحقيق الهدف والوصول إليه، خاصة عندما تحظى أيضا بمصور كلبيب

جزماوي؛ لا يهاب الصعاب ولا المخاطر.

أحيانا كنت ألتمس العذر لمرافقي في تردده؛ فالأوكرانيون، منذ أن وضعت الحــرب العالمية الثانية أوزارها لم يعيشــوا أهوال الحــرب. أجيال كثيرة منهم نعمت بالسلام والوئام. لم يعرفوا المعنى الحقيقي للحروب ولم يدركوا حجم ما تخلفه من دماء ودمار ومآس.

الحق أنه كان علينا أن نواجه أمرا آخر مع المتعاون والســائق وهو عامل الخــوف من الدخول إلى المناطق الخطرة التي تتعرض لقصف مثل زابوروجيا وخاركيف وغيرهما. كانت عملية الإقناع تتطلب كثيرا من الصبر الذي بدأ ينفد. وكان علــيَّ أن أوفّــق بين كثير من الأمور الإداريــة والميدانية في آن معا، وأن أحرص دائما على سلامة الفريق الذي يعمل معي، وأتأكد من كل شيء: الطعام، الوقود، وسائل الإجلاء من المنطقة على وجه السرعة إن اضطررنا إلى ذلك... وفي الوقت نفســه أحرص على تقديم رســالتي الصحفية بإتقان، سواء بالظهور المباشــر أو من خــلال إعداد التقارير الميدانية، وفــوق كل ذلك كان عليَّ أن أحاول تخفيف مخاوف أســرتي، وتبديد قلقهم الدائم، وأنا وسط معركة حامية الوطيس؛ ولا ســيّما أنهم يعيشــون لحظة بلحظة حالة القلق والخوف، أما أنا الذي أعمل في الميدان فمنشــغل على الدوام، ولا أعير الخوف أو الخطر، أو حتى الموت، الكثير من التفكير.

خلاصة القول: لم يكن ســهلا أن أغطي حربا ليســت في وطني ولا على أرضي، ولم يكن سهلا أن أوفق بين العمل الذي أريد له أن يكون متقنا من جهة، وعامل الخوف والقلق ومواجهة الصعاب والتحديات من جهة ثانية، لكن حينما أنظر إلى الوراء أجد أن كل هذه الأمور مجتمعة قد جعلت المهمة ليست مميزة فحســب بل تجربة من أهم "تجارب العمر" التي لا تُنســى. بل أصدقكم القول: إنني أرغب في أعماقي في أن تتكرر!

كييف في يوم الحرب الأول

المعتز بالله حسن



الوصول إلى كييف

كان أول ما سألت عنه تانيا، مساعدتنا المحلية التي أقلتني مع زميلي المصور تشاغطاي من مطار كييف إلى مركز المدينة حيث سنقيم: هل هناك من الأوكرانيين من يرى أن روسيا هي الوطن الأصلي؟ وأن الانسلاخ التام عنها خطأ؟

أخبرتني المساعدة بأن ثمة نظرة مختلفة بين كبار السن والشباب اتجاه روسيا؛ فكبار السن نشؤوا في فترة كان فيها الاتحاد السوفيتي ما زال قائما ثم شهدوا انهياره وانفراط عقد جمهورياته.. ولقد عرفوا الروسية لغةً رسميةً في المدارس، وتشبعوا بثقافتها ومفرداتها، وهم يستشعرون في أنفسهم القوة حين يلفظون كلمة روسيا.

ثم سكتت تانيا قليلاً قبل أن تضيف وهي تنقل بصرها بين المباني الواقعة على جانبي الطريق المرصوف بحجارة صغيرة: "بعد الثورة لم يعد بالإمكان المجاهرة بحب روسيا".

كنا قد وصلنا إلى فندق "أوكرانيا" المطل على ميدان "الاستقلال"، وهو الميدان الرئيسي في العاصمة كييف. هذا الميدان الذي سميت باسمه الثورة الأوكرانية عام 2014 (ثورة الميدان الأوروبي)، وهو المكان ذاته الذي شهد سلسلة من الأحداث العنيفة انتهت بفرار الرئيس فيكتور يانوكوفيتش إلى روسيا، بعد أن اتهمه المحتجون بالتراجع عن المضي في تحقيق اتفاقية شراكة مع الاتحاد الأوروبي كانت ستقصي إلى حد كبير الاتفاقيات التجارية المبرمة بين روسيا وأوكرانيا.

هل ستشنّ روسيا هجوما؟

كنت أتابع بشكل يومي أعداد القوات الروسية التي احتشدت على الحدود الأوكرانية من جهة الشرق، وداخل الأراضي البيلاروسية، وفي شبه جزيرة القرم، والتي كانت تصل في مجموعها، بحسب بعض التقديرات والتقارير الاستخبارية

الغربية التي كانت تنقلها وسائل الإعلام، إلى حوالي مئة وثلاثين ألف جندي.

فـــي بعـــض مناطق لوغانســـك ودونيتســـك الواقعتين شـــرقي البلاد، كان الانفصاليون الناطقون بالروســـية قد أعلنوا مناطقهـــم جمهوريات انفصالية عن أوكرانيـــا منذ أحداث 2014، وخلال الســـنوات الماضية، وبدعم روســـي، كان الانفصاليون قد تمكنوا من فرض حدود تفصلهم عن الجيش الأوكراني.

لم تكن روســـيا تقدم تبريرات واضحة لحشـــودها العسكرية على الحدود الأوكرانيـــة، ســـوى أن جنودها يتحركـــون على أراضيهـــا، وأن الجنود الروس الموجودين في بيلاروسيا هم ضمن قوات تقوم بمناورات مشتركة.

في الوقت ذاته كانت هناك تحذيرات غربية من هجوم روسي وشيك على أوكرانيـــا.. الولايات المتحـــدة ودول أوروبية عدة، منها بريطانيا، كانت تتحدث ليلا ونهارا عن قرب هذا الهجوم.

داخل العاصمة كييف كانت الأجواء هادئة مع بدايات شهر فبراير/ شباط.. اصطحبـــت زميلي تشـــاغطاي وحملنا جهـــاز البث الصغيـــر، والكاميرا، وباقي المعدات اللازمة للتصوير وبدأت أشـــارك في النشـــرات الإخبارية على شاشـــة الجزيرة وأتنقل بين أماكن متعددة.

معظم الوقت كنا نقضيه في العمل بمحيط شارع "خريشاتيك" الذي يتوسطه ميدان الاستقلال "نيزاليجنوستي"، وذلك لرمزية المكان وقربه نوعا ما من باقي المؤسسات الرسمية في البلاد.

تتـــوزع على جانبي هذا الشـــارع محـــالّ تجارية كثيـــرة، منها ما صار في الســـنوات الأخيرة مركزا لماركات عالمية شـــهيرة. وهو مقصد كثير من أهالي العاصمة ممن يرغبون في الســـير في مركزها بين الميدان وسوق "بيسارابسكي" الشعبي.

في ذلك الوقت لم أكن أشعر بأن الناس هنا مهتمون كثيرا بما يجري، كان ثمة شعور لدى كثيرين بأن كييف ستكون بعيدة عن كل ما يحدث، أو على الأقل هذا ما قد يستشعره من يرى الحياة في ذلك القسم من المدينة، بعيدا عما تتناقله وسائل الإعلام الدولية.

الابتعاد عن ذلك الشـــارع، والانتقال إلى مناطق أخرى في العاصمة، كان

من شأنه أن يخبر بحكاية أخرى، وقد رويتها في قصة إخبارية عن رأي الشارع الأوكراني حول احتمال هجوم روسي وشيك على بلادهم.

كان محور تلك القصة بسيطا، يعتمد على عرض وجهتي نظر، إحداهما ترى أن الحرب قائمة وقادمة لا محالة، وأخرى ترى أن الهدف مما تقوم به روسيا ليس الحرب نفسها، بل الضغط على أوكرانيا، أي أن الحرب لن تقوم.

التحضير لهذه القصة مرّ بنقطة كان لا بد من التوقف عندها، وهي وجود منظمات راديكالية تدرب المتطوعين على حمل السلاح.

مسؤولو منظمة "ناشيونال كورب"، وهي إحدى تلك المنظمات، كانوا يرون أنه لا بد من صِدامٍ حقيقي سيقع بين الجيش الأوكراني والجيش الروسي، وأن المسألة ليست مجرّد حشود عسكرية روسية على حدود أوكرانيا؛ بل معركة قريبة هي جزء من حرب أكبر بدأت قبل ثماني سنوات، أي منذ الثورة الأوكرانية، وسيطرة روسيا على شبه جزيرة القرم، وتحكم الانفصاليين في مناطق في لوغانسك ودونيتسك بشرق أوكرانيا.

أخبرتني مساعدتنا المحلية بأنها تستطيع التواصل مع أحد المسؤولين في هذه المنظمة اسمه أليكسي، وبالفعل دعانا أليكسي إلى أحد التدريبات التي يقومون بها.

كان تصوير تلك التدريبات سيعطي قصتي الإخبارية مساحة بصرية جيدة، وفي نفس الوقت سيدلّ على وجود نشاط تحضيري لمواجهة مرتقبة.

اختارت تلك المنظمة لتدريباتها معملا أُغلق بُعيد انهيار الاتحاد السوفييتي، وصارت تستقبل في ساحته المتطوعين من المواطنين الراغبين في تعلم حمل السلاح وبعض تقنيات الاشتباك في المعارك.

بحسب أليكسي فإن منظمته وحدها كان لديها أكثر من خمسة وعشرين ألف متطوع دربتهم على حمل السلاح. كانت المنظمة تؤمّن البنادق المستخدمة في التدريب، وترحب بمن يجلب سلاحه معه، أما الألبسة فكانت من المواطنين أنفسهم بحسب أليكسي.

كانت أعداد المواطنين ذاك اليوم بالعشرات، معظمهم ارتدى ثيابا عسكرية، ومن لم يجد بندقية يحملها كان يحمل بندقية خشبية.. التركيز في ذلك اليوم

كان على وضعيات الوقوف في حالات الحراسة أو الاشتباك.

لم تكن "ناشـيونال كورب" هي المنظمة الأوكرانية الوحيدة التي ترى أن الحـرب القادمـة هي أمر لا مهرب منه، كان هنـاك عدة منظمات أخرى تجهز النـاس للمرحلة المقبلة؛ بعضها يدرب المواطنين على الرعاية الصحية كالعناية بالجرحى، وآخرون يقومون بالتدريب على تنظيم فرق التعاون الأهلي الميداني وقت الحرب.

في جزء آخر من العاصمة كانت "داشا" تكافح لتهزم الخوف الذي تنشره أخبـار الحرب في محيطها، فالمعركة الحقيقية في رأيها ليس شـرطا أن تكون عسكرية على الأرض.

تمتلك داشا مقهى صغيرا يتسع لبضعة زبائن فقط، كانت ترى أن الحرب لن تفيد روسيا ولا أوكرانيا، وأن من شأن حرب كهذه أن تشعل العالم كله، وأن الأخبار الحالية تؤثر في الأوكرانيين، وتنشر الذعر في الشارع، وأن هذا هو بيت القصيد تماما بالنسبة لموسكو.

جمعـت هاتين الفكرتين في قصتي، ومع ذلك كانت هناك في تلك الفترة أسـئلة ثقيلة في الشـارع الأوكراني تتعلق بالوضع الراهن، أسـئلة بحجم: هل ستدفع أوكرانيا ثمن مسارها الذي شقته منذ عام 2014؟ وهل ستستطيع الوقوف في وجه خصم بحجم روسيا إذا اندلعت الحرب؟

كان الأوكرانيون منقسـمين بين مقتنع بهجوم روسي وشيك على بلادهم، وبين من يرى أن ما يحدث ما هو إلا جزء من رقعة المعركة الكبرى بين روسيا والغرب.

حراك دبلوماسي في كييف

مـكان إقامتنا أنا وزميلي المصـور في فندق أوكرانيا مثاليّ لتغطية ومتابعة الحراك الدبلوماسي الذي كانت تعيشه العاصمة الأوكرانية في تلك الأيام. فقد كان الفندق قريبا من وزارة الخارجية، ومن البرلمان، وقصر مارينسكي التاريخي الذي يسـتقبل فيه الرئيس فولوديمير زيلنسكي ضيوفه من الرؤساء والمسؤولين الدوليين، وقرب هذه الأماكن من مكان إقامتنا يعني أننا نسـتطيع التوجه إليها مشـيًّا علـى الأقـدام، وهذه نعمة حقيقيـة بالنظر إلى الازدحـام المروري في

العاصمة أحيانا، ولكنه في نفس الوقت كان نقمة بالنسبة للأوزان الثقيلة التي كنا نحملها معنا، أو نجرها خلفنا من الكاميرا إلى جهاز البث وملحقاتهما، إضافة إلى مستلزمات الإضاءة. وغالبا ما كان علينا التوجه يوميا إلى أحد تلك الأماكن، إذ لم تنقطع يوما زيارة المسؤولين الأوروبيين وغيرهم من القادة الغربيين لكييف، وفي اليوم الواحد كنا نتحدث أحيانا في النشرات الإخبارية عن عدة زيارات.. أذكر من هؤلاء نوابا وأعضاء في المجلس الأوروبي، ووزراء خارجية معظم الدول الأوروبية، فضلا عن رؤساء وزراء مثل: البريطاني بوريس جونسون، والهولندي مارك روته، والمستشار الألماني أولاف شولتز، ورؤساء فرنسا وتركيا وبولندا وغيرهم.

لم أر خلال عملي الصحفي زيارات دبلوماسية -بهذا الكمّ والتوقيت- لعاصمة واحدة كما رأيت في كييف. كان الأوروبيون يحملون رسائل متشابهة خلال زياراتهم تلك؛ وهي دعم كييف ضد تهديدات موسكو. بعض هؤلاء الزوار كان يخصص يوما من زيارته للتوجه إلى شرق أوكرانيا وتحديدا إلى منطقة دونباس. لقد كانت الصورة التي حاول الأوروبيون رسمها بزياراتهم تلك تعني بكلمة واحدة "الدعم"، وإن الناظر إلى هذه الصورة ربما اعتقد أنه إذا هاجمت موسكو كييف فإنها ستجد جيوشا أوروبية عدة في مواجهتها، وهذا الاعتقاد وإن كان مبالغا فيه واقعيا، فإنه يصف حجم رسائل الدعم التي قدمها الأوروبيون إلى كييف.

أثارت هذه الزيارات المكثفة، والوعود الأوروبية بدعم واسع للأوكرانيين تساؤلات عدة عما إذا كان هذا الدعم سيكون حقيقيا، إذا وقعت الحرب فعلا ودخلت القوات الروسية إلى الأراضي الأوكرانية.

كان واضحا أن الأوكرانيين يحصلون على معلومات استخبارية تؤكد هذا الهجوم، وفي الوقت نفسه كانوا ينظرون بعين الريبة إلى تأكيد موسكو أنها لن تقوم بمهاجمة أوكرانيا. لقد تحدث الرئيس زيلينسكي وقتها عن أن استخبارات بلاده تقيّم كل التقارير الصادرة عن الغرب بقرب الهجوم، وعن الروس بنفي ذلك.

كان الأوكرانيون في الأسابيع الأولى من شهر فبراير/ شباط يتساءلون

شـعبيا ورسميا عن المدى الذي يمكن أن يذهب إليه الأوروبيون والأمريكيون في الدفاع عن أوكرانيا.

السفارات تنتقل غربا

مع اقتراب شـهر فبراير/ شـباط من انتصافه، زادت التقارير الإخبارية عن هجوم روسي وشيك على أوكرانيا. كانت هذه التقارير معززة بصور أقمار صناعية تظهر زيادة في حجم القوات الروسية في محيط أوكرانيا، وانتقال أعداد من هذه الوحدات إلى أخذ وضع الاستعداد للهجوم بحسب تقارير أمريكية، وفي المقابل كانت روسيا تنفي بشدة أنها ستهاجم أوكرانيا، في حين كانت دول أوروبية تصر على أن هذا الهجوم الروسي، إذا وقع، ستكون له عواقب وخيمة، وفي مقدمة تلك الدول بريطانيا.

زار الرئيس الفرنسـي ايمانويل ماكرون موسـكو وكييف معا غير أن زيارته لم يكن لها أي نتائج تذكر، ولم تطمئن العالم بأنه لن تقع حرب، إذا ما استمر الوضع الحالي.

كنت أسـتمع إلى المؤتمر الصحفي للرئيسين الفرنسي ماكرون والأوكراني زيلينسكي من حديقة قصر مارينسكي، وكان واضحا أن ماكرون عاد من موسكو بخفي حنين.

في صباح الثاني عشـر من فبراير/ شـباط وصلت إليّ معلومات تفيد بأن الموظفين غير الأساسـيين في سـفارة روسيا في كييف قد غادروها، وكان يوما مثلجـا كعـادة معظم الأيام في هذه الفترة من العام في العاصمة، اضطررت فيه إلى ارتداد معطف سميك اشتريته مؤخرا، إذ لم تكف كثافة المعاطف التي جلبتها معي من أنقرة.

لم يكن هناك أي حراك واضح في السـفارة الروسـية عندما وصلت إليها، الروس كانوا قد دعموا نوافذ السفارة بتحصينات أمنية، ولم يكن هناك أيضا أي مظاهر احتجاجية في ذلك اليوم أمامها.

كان سؤال المذيع لي خلال مشاركتي من أمام السفارة الروسية في كييف عن حركة الناس في الشوارع، وعما إذا كانت هناك في العاصمة طوابير للحصول على المواد الأساسية.

أجبت بأن الأوضاع في المدينة كانت اعتيادية، وأن قسما من الناس يستشعرون القلق من الأوضاع الحالية، ولم يكن أي أحد من الذين تحدثوا إلينا يتوقع حربا قريبة، لكن ذلك تغير فجأة مع إعلان الرئيس الأمريكي جو بايدن تاريخ الهجوم الذي ستشنّه روسيا على أوكرانيا، وقد حدد هذا التاريخ بالسادس عشر من الشهر نفسه (فبراير)، أي بعد أيام قليلة جدا.

هنا بدأ الناس ينظرون بعين قلقة إلى مجريات الأحداث، زاد في ذلك إعلان سفارة الولايات المتحدة في كييف نقل موظفيها من كييف إلى "لفيف" في غرب أوكرانيا في الرابع عشر من فبراير/ شباط، وكانت تلك الخطوة هي الحبة الأولى في مسبحة انقطع خيطها، فتوالت بعدها حبات أخريات، حيث أعلنت عشرات من الدول نقل سفاراتها إلى المنطقة الغربية من أوكرانيا.

بوتين يعترف بلوغانسك ودونيتسك جمهوريتين مستقلتين عن أوكرانيا

سألني زميلي المصور: هل ما زلنا على النافذة؟

عادة ما كنا نقف كلٌّ في مكانه من المدينة التي يغطيها، ويحلو لزملائنا المنتجين أن يبقوا صورنا على الشاشة كلٌّ في مربعه. وربما كان هذا من أكثر الأمور إجهادا لي وأنا أراسل من الميدان، الوقوف الطويل في نقطة واحدة والثبات أمام الكاميرا فترات طويلة خلال التغطيات المفتوحة أمر مجهد، خصوصا إذا استمر ساعات، كما حدث في ذلك اليوم.

مرت خمسة أيام تقريبا على الموعد الذي وضعه الرئيس الأمريكي جو بايدن تاريخًا لغزو روسيا لأوكرانيا ولم يحدث شيء. استهزأ الروس بالواقعة وسخرت المتحدثة باسم الخارجية الروسية، ماريا زاخاروفا، من هذا التاريخ، ومن الغرب، وقالت وقتها متهكمة: "أبلغونا بموعد الغزو للعام المقبل لننظم إجازاتنا"، ولم يكتف الروس بذلك بل وصل الأمر إلى مطالبة روسيا باعتذارٍ بريطانيٍّ عمّا سمته "التجييش ضد بلادها".

كنت أقف أمام وزارة الخارجية الأوكرانية في ساحة دير القديس ميخائيل، وهو دير ذو قباب ذهبية، وكانت الأمطار الغزيرة قد غسلت الساحة وتمثال الأميرة أوليفا الذي نقف بجواره. نجح زميلي المصور في حماية الكاميرا من المطر عبر مظلة كانت معه، أما أنا فكنت قد تبللت تماما؛ فالمطر لم يتوقف

منذ ساعات. أخبرتني مساعدتنا المحلية بأن الرئيس الروسي سيتحدث، وما هي إلا دقائق حتى قطعت الجزيرة تغطيتها، ونقلت كلمة الرئيس الروسي فلاديمير بوتين.

كانت كلمة مسجلة قبل وقت قصير فقط، وطويلة، لكن أهميتها أنها كانت للرئيس أمام مجلس الأمن الروسي، ولم يكن معتادا -حسبما فهمت- أن تنقل كلمة الرئيس الروسي في هذا المجلس.

كان واضحا أن خطوة كهذه تعني أن أمرا ما سيحدث، خصوصا أن الجلسة كانت مخصصة لنقاش دعوة نواب مجلس الدوما الروسي للرئيس للاعتراف باستقلال إقليمي لوغانسك ودونيتسك اللذين يسيطر عليهما الانفصاليون في شرق أوكرانيا منذ عام 2014.

لم تخب توقعاتي، هذه الجلسة الطويلة التي شهدت كلمات لوزراء الدفاع والخارجية ورئيس مجلس الدوما وغيرهم، كانت نهايتها إعلان الرئيس بوتين الاعتراف بالإقليمين جمهوريتين مستقلتين، وأعقب ذلك توقيعه مع رئيسي "الجمهوريتين المعترف بهما" اتفاقات تعاون عسكري.

كانت تلك إشارة واضحة وكافية بالنسبة لي إلى أن الحرب قادمة لا محالة.

هجمات إلكترونية، وقوانين على عجل

في حدود منتصف فبراير/ شباط كانت حركة الطيران التجاري ما زالت مستمرة رغم معاناتها، إذ أوقفت عدة شركات رحلاتها إلى أوكرانيا في ذلك الوقت بعد إعلان شركات التأمين الدولية إيقاف التأمين على الرحلات المدنية الذاهبة إلى هناك.

كانت معظم الرحلات من مطار كييف في تلك الأيام إما إلى مدينة لفيف في غرب أوكرانيا، وهي المدينة التي انتقلت إليها معظم البعثات الدبلوماسية، أو إلى خارج أوكرانيا، حيث طلبت معظم الدول من رعاياها ودبلوماسييها المغادرة ما دام ذلك ممكنا عبر الوسائل التجارية، حتى إن بعض الدول عينت طائرات إجلاء لرعاياها.

بالتزامن مع هذه التطورات كانت البلاد تعيش على وقع هجمات إلكترونية ازدادت وتيرتها، وقد طالت هذه الهجمات مواقع لمؤسسات مهمة مثل: وزارة

الدفاع، والقوات المسلحة، والبنوك، مما تسبب في تعطيل خدمات تلك المواقع آمادًا مختلفة.

تحدثت إلى العديد من الأشــخاص فأخبروني بأنهم لم يســتطيعوا الولوج إلى حســاباتهم المصرفية عبر الجوال، وفي المقابل كانت البنوك تصدر بيانات مقتضبة تشير إلى أن ما يحدث هو خلل إلكتروني يتم التعامل معه، وكانت تبلغ زبائنها رسائل عبر موقعها بأن هذا الخلل يتم التعامل معه.

كان واضحــا عــدم رغبة المســؤولين الأوكرانيين في الســماح لمثل هذه الحوادث بأن تزيد من توتير الوضع وإثارة مخاوف المواطنين وإيجاد حالة من الهلع.

كان صعبا من الناحية التقنية التأكد من أن الروس هم من يقومون بذلك، وقد تحدثت إلى الخبراء المعنيين في كييف فأخبروني بذلك أيضا، وأنا أفهم هذه النقطة تماما، إذ عملت على موضوع مشابه في تركيا التقيت خلاله بعض الخبراء البارزيــن في مواجهــة الهجمات الإلكترونية، فأكدوا لــي صعوبة معرفة مكان انطــلاق هذا النوع من الهجمــات، ومع ذلك فإن جميع الخبراء الذين تحدثت إليهــم أثنــاء عملي على هذا النوع من الحوادث، متفقون على أنه حتى وإن لم يكن بالإمكان تحديد مكان إطلاق الهجمات، فإنه بالإمكان تقدير الجهات التي تقف خلفها، وفقا للأضرار التي تتسبب فيها، وفي الحالة الأوكرانية كان المتهم الأساســي، بحســب هؤلاء الخبراء، هم الروس. وكما قلت فلم تسلم المواقع الحكومية المهمة من تلك الهجمات بما فيها موقع وزارة الخارجية التي كانت تكثف اتصالاتها في تلك الفترة لحشد دعم دبلوماسي ضد التهديدات الروسية، ولا موقع البرلمان.

وبالتزامن مع هذه المشكلة التي كان يواجهها الأوكرانيون كانت تصل إلى السلطات الأوكرانية عشرات الاتصالات والبلاغات عن وجود أجسام مشبوهة أو قنابل في هذا المكان أو ذاك، كما حدث يوم الثالث والعشرين من فبراير/ شباط حيث وردت أخبار عن وجود قنبلة في البرلمان (الرادا)، وقد كنت هناك يومها وبعد تفتيش المبنى اتضح أن الخبر كاذب، وإذا عرفنا أن البرلمان الأوكراني كان مشغولا في ذلك اليوم بالتصويت وإقرار عدد من القوانين ذات الطبيعة العاجلة،

كقانون التسليح الفردي، وفرض حالة الطوارئ في البلاد يتضح الأمر جليًّا.

24 فبراير / شباط

كان يوم الثالث والعشـرين يوما طويلا ومُتعبا، عملت فيه طيلة نشـرات النهـار، واسـتمر الأمر حتى نشـرة منتصف الليل التي تحدثـت فيها عن إقرار البرلمـان بالإجماع فـرض حالة الطوارئ في البلاد، وإعـلان طلب الاحتياط للمواطنين ممن أدوا الخدمة العسكرية، وتقدموا بطلب عند نهاية خدمتهم يفيد باستعدادهم للالتحاق بالجيش عند الحاجة.

كان الوضع متوترا، فكل هذه التطورات كانت في يوم واحد وهو أمر أثقل من أن يدرك أبعاده العقل دون تفكير عميق، لكن أنَّى ذلك والساعة تقترب من الواحـدة فجـرا فآثرت تأجيل هذا التفكير وذلك التأمل إلى ما بعد أخذ قسـط من الراحة، فزحفت إلى سريري في الطابق الحادي عشر من فندق أوكرانيا في ميدان الاسـتقلال في كييف وأردت أن أنام غير أن ثمة شـخصا آخر كانت له إرادة مغايرة. لقد اتخذ بوتين قراره. استيقظت بعد برهة على أصوات انفجارات وركض في ممرات الفندق.. لقد بدأت روسيا مهاجمة أهدافٍ في العاصمة ووقع ما كان العالم يحبس أنفاسه انتظارا له.

لقد بدأت الحرب

مع فجر الرابع والعشـرين من فبراير/ شـباط بـدأت أصوات انفجارات ضخمـة تُسـمع في أنحاء العاصمة كييف. لم أعد أذكـر تماما أيّنا الذي اتصل أولا بالآخر، أنا أم زميلي المصور تشـاغطاي، ولكن ما أذكره أننا كنا نسـابق الزمن لتحضير الكاميرا وجهاز البثّ، بعدما ارتدينا ما اعتقدنا أنه كاف لتدفئتنا.

حاولـت أولا الحصول على معلومات عن مواقع الضربات، كان معظمها فـي أطراف كييف، في بوريسـبول وبروفاري وغيرهـا، لكنها لم تكن وحدها. المعلومات الأولى كانت تشير إلى هجمات صاروخية واسعة استهدفت، إضافة إلى كييف، مدنا مثل خاركيف، وأوديسا، وميكولايف، وخيرسون، وكراماتورسك وماريوبول. ركزت في عملي على نقطتين أساسيتين:

الأولـى هي رصـد كل ما يمكن رصده من معلومـات ميدانية عن حجم

الموجة الأولى من الضربات الصاروخية، وتحديد الأماكن المستهدفة قدر الإمكان، ولم يكن ذلك سهلا أبدا في ظل حالة الفوضى المعلوماتية التي اجتاحت الساحة الأوكرانية.

أما النقطة الثانية التي انتهجتها في تلك الساعة فكانت متابعة تصريحات المسؤولين الأوكرانيين، وخصوصا الرئيس ووزيري الخارجية والدفاع لفهم حجم تلك الضربة.

كان ثمة سعيٌ روسي بحسب ما فهمت لاحقا لتدمير الدفاعات الجوية في محيط العاصمة وعدد من المواقع العسكرية الأوكرانية.

في الساعات الأولى للحرب كان الوصول إلى المعلومات حول خارطة الهجمات الروسية صعبا في ظل اتساع رقعتها، حاولت أنا وزملائي الموجودون في مناطق أخرى من أوكرانيا، كلٌّ من المدينة التي يوجد فيها، أن نقدم أدق المعلومات، لكن ما زاد من صعوبة الأمر بالنسبة لنا في تلك الساعات هو أن مساعدتنا المحلية لم تعد في وعيها من شدّة الذهول. كانت في الأيام السابقة، ومنذ إعلان الرئيس الروسي اعترافه بلوغانسك ودونيتسك جمهوريتين مستقلتين، قد بدأت تخاف مما قد تؤول إليه الأوضاع.

حتى ذلك الصباح لم يكن ثمة أي مظاهر مسلحة في العاصمة. خلال الأيام الأخيرة كان هناك انتشار أمني بسيط لعناصر من الشرطة، وكانت وزارة الداخلية قد نشرت رسائل عبر الإنترنت تطلب فيها من السكان عدم القلق من هذا الانتشار، مؤكدة أن هدفه هو ضبط وحماية العاصمة.

بحكم قوانين الجزيرة، كان يجب أن نبدأ أنا وزميلي بارتداء السترة الواقية والخوذة المكتوب عليها كلمة "صحافة Press".. لا أطيق هذا الأمر، فوزن هذه السترة في حدود عشرين كيلوغراما مع خوذتها، وكلما زاد الوقت الذي ألبسها فيه يصير شعوري بالوزن مضاعفا، ولكنها ضرورية في فترات الحروب لكونها نوعا من أنواع الحماية حتى ولو كانت حماية بسيطة، وللتعريف بأننا صحفيون.

بدأت أنا وزميلي المصور العمل من الميدان نفسه، ذلك الميدان الذي كان منارة يتجمع الناس والسياح حولها في الأيام الماضية التي قضيتها في كييف، وها هو اليوم أصبح شبه مهجور إلا من بعض المارة. بدأ بعض المواطنين

البحـــث عن ما يمكـــن تخزينه من أغذية، وقصدوا لذلك متجــرا أو اثنين بقيا يعمـــلان فـــي المدينة التي أغلقت باقي محالّهـــا التجارية. كان هم الناس وقتها يتعلق بأمرين أساســيين: الحصول على المواد الغذائية من البقالات، والحصول على النقود من الصرافات الآلية.

كان أول صباح أرى فيه شوارع العاصمة خالية هكذا منذ أن وصلت إلى أوكرانيا، لقد نزل معظم أهل المدينة إلى الملاجئ، أو التزموا البيوت.

ها أنا أسمع صوت صافرات الإنذار في سماء كييف، صافرات كان صوتها يتحشرج بعد أن صمت عقودا.

ســـألتني زميلتنا المذيعة عن الأوضاع في العاصمة فأجبت: "لم يعد الأمر مجرد شرارة لتوتر، لقد أصبحت الحرب قائمة، وها نحن نسمع صوت صافرات الإنذار في قلب العاصمة الأوكرانية كييف".

كنا هناك ساعة الصفر

أمين درغامي



قبل العشــرين من فبراير/ شــباط 2022 لم أكن أتوقع، كما لم يكن يتوقع كثيرون، أن الرئيس الروســي فلاديمير بوتين سيفعلها، ويشن حربا على الجارة أوكرانيا، لكنه فعلها.

بحسب الرؤية الروسية فإن هذه الحرب ليست فقط من أجل الخلاف مع حكومة كييف أو ضمان أمن الناطقين بالروسية في إقليم دونباس بجنوب شرق أوكرانيا، ولكنها في المقام الأول جزء من أمن روسيا القومي، وتأتي في سياق صراع إقليمي ودولي أوسع.

تزايدت خلال الأشهر التي سبقت الحرب المؤشرات على احتمال نشوبها، في وقت أصرَّت فيه دول غربية، وعلى رأسها الولايات المتحدة الأميركية، على توقع موعد اندلاع شــرارتها ونطاق تمددها وتفاصيل عسكرية أخرى تدل على أن معلومات دقيقة كانت متوفرة لدى أجهزة الاستخبارات الغربية، وتزامن مرارا الإفصاح عن تلك المعلومات مع إطلاق تصريحات سياسية ودبلوماسية أمريكية على وجه الخصوص، كانت تحذر وتنذر، وتؤكد بين حين وآخر وجود عقوبات جاهزة، ســتُفرض على روسيا بمجرد شنها لتلك الحرب، في حين ظل الساسة الروس إلى غاية الأسابيع الأخيرة قبل الحرب، يستبعدون نيتهم التدخل عسكريا في هذا البلد، الســوفيتي الســابق، ويضعون كل ما يُفصَح عنه في الغرب ضمن إطار التحرشات السياسية التي تمهّد لتمدّد حلف شمال الأطلسي، وفرض مزيد من العقوبات على موسكو. بل إن النفي الروسي وصل في أحيان كثيرة إلى حد السخرية.

في أبريل/ نيســان من عام 2021، أي قبل عشــرة أشهر من إطلاق روسيا ما تســميه "عملية عسكرية خاصة"، شــهدت المناطق المتاخمة لحدود أوكرانيا تحركات مريبة، اتخذت شــكل مناورات وإعادة انتشار وتوزيع لقطعات وألوية من الجيش الروســي. أكدت موســكو حينها، على لسان أكثر من مسؤول رفيع، أنها تتخذ تلك الإجراءات ردًّا على اقتراب حلف شمال الأطلسي من حدودها الغربية تارة، ووضعتها تارة أخرى في إطار الأعمال الدورية التي تقوم بها عادة بهدف الوقوف على جاهزية قواتها المسلحة في المنطقتين الجنوبية والغربية من

البلاد.

حينئــذ أوكلت لنــا إدارة التحرير بقناة الجزيرة مهمــة التوجه إلى مقاطعة روســتوف الروسية المحاذية لإقليم دونباس لرصد مظاهر التحركات العسكرية تلك، مع البقاء على أهبة الاســتعداد للدخول إلى الإقليم الانفصالي إذا شــهد تصعيدا عســكريا بين القوات الموالية لروســيا والجيش الأوكراني، خاصة أن الهدنــة بين طرفــي الصراع، أي بين أوكرانيا والانفصاليين، كانت هشــة للغاية وانتهاكات وقف إطلاق النار بين الجانبين لم تتوقف فعليا منذ شتاء عام 2015.

كانت تلك المهمة الميدانية من أكثر التغطيات التي شعرت فيها بخيبة أمل منــذ اليوم الأول؛ فإطار تحركاتنا قرب الحدود لرصد المظاهر العســكرية كان ضيقا بحكم الإجراءات الروسية التي تمنع أي نشاط صحفي على مسافة عشرة كيلومتــرات من حدود البلاد، مــن دون الحصول على موافقة أمنية، مما جعلنا نكتفي -على مدى عشرة أيام- بإجراء مداخلات مباشرة من مناطق بعيدة نسبيا عن الحدود، من دون أي رصد لتحركات تلك القوافل العسكرية التي جئنا من أجلها.

فــي نهايــة العام الماضي (2021) وتحديدا في الشــهرين الأخيرين، ازداد إصرار دول غربية وعلى رأســها الولايات المتحدة، على أن روســيا تعد العدة لغزو أوكرانيا عســكريا، مســتدلة بمعلومات اســتخبارية، نفتها روســيا جملة وتفصيلا وشــككت في صحتها الســلطات الأوكرانية نفســها. إصرار استوجب من مكتب الجزيرة في موســكو البقاء على أهبة الاســتعداد؛ فكنا نواكب سيل التصريحات والتصريحات المضادة على مدار الساعة، بين إصرار غربي على أن روسيا ستغزو أوكرانيا، ونفي روسي وصل إلى حد الاستهزاء بتلك التصريحات كما سبق القول.

حينما حل العام الجديد لم يتغير شــيء وبقي الوضع على حاله؛ فروســيا تواصل مناوراتها العســكرية والدبلوماســية، والغرب يحذر من حرب وشيكة، وحدة التوتر السياسي بين موسكو والعواصم الغربية تتصاعد، وتجاهل المطالب الروســية، بتوقيع اتفاقية أمنية يلتزم بموجبها الناتو بعدم التوسع صوب الحدود الروسية الغربية، مستمر.

وفي ظل هذه الأجواء المحتدمة عدت بذاكرتي سنوات إلى الوراء، وتحديدا إلى ربيع عام 2014، عندما أُوكلت إليَّ مهمة تغطية الحراك الانفصالي في إقليم دونباس منذ بداياته، مرورا باستفتاء الانفصال عن أوكرانيا، وصولا إلى أحداث مطار دونيتسك الدولي في الثامن والعشرين من مايو/ أيار من نفس السنة، وهي الأحداث التي تعد فعليًّا الشرارة الأولى للصراع الذي نشهد امتداده اليوم في أوكرانيا. لقد عايشت حينها كل تلك الأحداث التي ستغير فيما بعد وجه أوكرانيا، بل شكل العلاقات بين روسيا والغرب.

لن أطيل في سرد تفاصيل ربيع ذلك العام لزخمها وتفاصيلها الكثيرة، وسأكتفي بذكر استنتاجات احتفظت بها لنفسي طيلة السنوات الثماني للصراع، ساعدتني في فهم جذوره؛ وهي خلفيات وتفاصيل وظفتها في تغطيتي للحرب الراهنة، وساعدتني كثيرا على فهم ما يجري وتحليله، بما أسهم في إثراء التغطية المميزة لقناة الجزيرة.

أيقنت أولا، أن روسيا لن تترك إقليم دونباس يواجه مصيره عند اندلاع حرب مباشرة مع أوكرانيا، ثم أيقنت أن تنفيذ اتفاقيات مينسك، وخاصة منح كييف دونباس وضعا قانونيا خاصا، سيعني انهيارا حتميا للدولة الأوكرانية، وأدركت جيدا في النهاية أن حربا شاملة أوسع من الإقليم الانفصالي قادمة لا محالة؛ مهما اختلفت الأسباب والتسميات.

زيارة في توقيت مهم.. وبوادر حرب تلوح في الأفق

في الأسبوع الأول من هذا العام (2022)، تلقيت اتصالا هاتفيا من زميل صحفي عملنا معا قبل 8 سنوات في إقليم دونباس، أخبرني فيه بأن إدارة رئيس الانفصاليين في دونيتسك مستعدة لمنح قناة الجزيرة لقاءً صحفيا مع الرئيس دينيس بوشيلين. عرضت الأمر على إدارة التخطيط فرحبت بالفكرة وتوجهنا إثر ذلك إلى دونيتسك بعد استصدار التصاريح والاعتمادات.

وصلنا إلى دونيتسك ساعة واحدة قبل موعد اللقاء، ولم يكن هذا اللقاء هو الأول الذي أجريه مع زعيم الانفصاليين؛ بل أجريت معه لقاءين سابقين عامي 2014 و2015 حينما كان رئيسا لبرلمان دونيتسك الشعبي.

أجرينا اللقاء في مطعم ملاصق لإدارة رئاسة الجمهورية غير المعترف

بها دوليا، ولم تخرج أجوبة بوشـيلين عن إطار ما يُصرَّح به في موسـكو مرارا؛ وذهبت معظمها في اتجاه اتهام كييف بخرق اتفاقيات مينسك، وتحضير القيادة العسـكرية الأوكرانية لغزو مناطق الانفصاليين، ومواصلة دول غربية عدة توريد أسلحة متطورة إلى أوكرانيا، وسعي من قبل سلطات الإقليم الانفصالي للانضمام إلى روسيا.

بعد اللقاء، وفرت لنا سـلطات الانفصاليين كل التسـهيلات لإنجاز تقارير عـن الأوضاع الأمنية قرب خط وقف إطـلاق النار، وعن الأوضاع الاقتصادية والإنسـانية في المدينة. مكثنا في دونيتسـك أحد عشر يوما أنجزنا خلالها عددا من التقارير، وقد شـكلت لي هذه الزيارة فرصة لإنعاش ذاكرتي بالمنطقة التي لم أزرها منذ سـنوات، والوقوف على حجم التغيرات التي طرأت في مختلف مناحي الحياة فيها، منذ أن تمردت على كييف واختارت، مدعومة من روسـيا، خيار الانفصال.

كان عدد سـكان دونيتسك قبل اندلاع الأزمة عام 2014 يقترب من مليون نسـمة، أما المدينة اليوم فهي شـبه فارغة بعد أن هجرها نحو 80٪ من سكانها، بحسـب تقديرات غير رسـمية، ناهيك عن تغيرات أخرى طالت باقي مناحي الحيـاة، من البنية التحتية إلى الاقتصاد، مـرورا بطباع الناس وعاداتهم اليومية. فالمدينة، على سـبيل المثال، تعيش نظاما ربما يكون أطول نظام حظر للتجوال في التاريخ، حيث فُرض في الثامن والعشرين من مايو/ أيار من 2014، وما زال قائما حتى يومنا هذا (2022).

قبل مغادرتنا دونيتسـك، اتصلت بالمسـؤولة الإعلامية لدى الانفصاليين لأخبرها بأن مهمتنا انتهت وأننا نسـتعد للمغادرة، وأبديت لها رغبتنا في العودة إذا ما اسـتدعت الضرورة ذلك، فكان ردها مفاجئا وغير منتظر: "سـيد أمين، سـتعودون إلى دونيتسك خلال أسـبوعين أو ثلاثة". هكذا وبكل بساطة ودون تفاصيل أخرى.

عودة إلى دونباس قبيل الحرب

عدنا من جديد إلى دونباس، في التاسع عشر من فبراير/ شباط، تماما كما توقعت المسؤولة الإعلامية للانفصاليين، ومن الواضح أنها كانت تعلم أن أمرا

جللا قادم، رغم أني أستبعد أنها وباقي المسؤولين في الإقليم الانفصالي كانوا يعلمون تفاصيل أكثر مما يُراد لهم أن يعلموه.

وصلنا إلى دونيتسك يوما واحدا بعد إطلاق السلطات الموالية لروسيا عملية إجلاء واسعة لسكان الإقليم من النساء والأطفال إلى الأراضي الروسية، كان ذلك يتم بالتوازي مع إعلان التعبئة العامة في صفوف جميع الذكور القادرين على حمل السلاح الذين تتراوح أعمارهم بين 18 و55 عاما.

تزايدت بشكل متسارع الإرهاصات والمؤشرات، على أن الحرب أصبحت قريبة. يوما واحدا بعد ذلك، اعترفت روسيا باستقلال جمهوريتي دونيتسك ولوغانسك الشعبيتين عن أوكرانيا، كان يوما شاقا في مسار التغطية الإخبارية، فُتح الهواء ساعات طويلة من أجل رصد كل صغيرة وكبيرة.. مداخلات مباشرة كل ساعة وأحيانا مرتين أو ثلاثا خلال نفس النشرة.

رصدنا الاحتفالات الشعبية بهذا الحدث الكبير، تجمهر عشرات من سكان دونيتسك وسط ساحة لينين المقابلة لفندق إقامتنا، رافعين الأعلام الروسية وأعلام الجمهورية الانفصالية.. لم تدم تلك الاحتفالات طويلا مع حلول وقت حظر التجوال في تمام الساعة 23:00 بالتوقيت المحلي.

عدت أنا والزميل المصور إلى الفندق لنأخذ قسطا من الراحة، ولنتدفأ قليلا بعد وقوفنا ساعات طويلة في برودة كانت تقترب من عشر درجات تحت الصفر، وفي لحظة الاسترخاء تلك فتحت هاتفي لأتفحص ما يروج في مواقع التواصل بخصوص هذا الحدث الاستثنائي، لأُفاجأ بفيديو نشرته حسابات محسوبة على الانفصاليين وأخرى روسية، يُظهر ما قيل إنه قوافل عسكرية روسية اجتازت الحدود في طريقها إلى دونيتسك.

بعد التنسيق مع مدير التخطيط والزملاء في قسم المراسلين، قررنا التوجه على وجه السرعة إلى مداخل المدينة لرصد دخول تلك القوافل العسكرية الروسية. استدعيت السائق الذي كان يستعد للخلود إلى النوم، ووصل المرافق المحلي بدوره، الذي بقي مصرا طوال الطريق، على أن الخبر زائف ولا يمكن أن تدخل قوافل عسكرية روسية بتلك السرعة إلى دونباس؛ أي بساعاتٍ فقط بعد إعلان الرئيس الروسي فلاديمير بوتين اعترافه باستقلال الجمهوريتين الشعبيتين،

كما كان يهمس أحيانا بأنه "حتى وإن صح الخبر، فإننا لن نجد شيئا في طريقنا، لأن تلك القوات قد تسلك طرقا فرعية بعيدا عن أعين الناس".

كانت الساعة تشير إلى الواحدة ليلا، اقتربنا من الطريق الرئيسي الرابط بين مدينتي ماكييفكا ودونيتســك من جهة الشرق، استرقنا السمع وساعدنا في ذلك الصمت المطبق على المنطقة، فبدأت أصوات المزنجرات تقترب شـيئا فشـيئا بعد أن توقفنا في طريق فرعي مظلم يطل على دونيتســك، اقترح حينها السـائق المحلي أن نواصل المسير في نفس الاتجاه، وتحديدا صوب طريق يطلق عليه "دكاد"، وتعني اختصارا الطريق الدائري حول مدينة دونيتســك، وما إن تحركنا نحو كيلومترين حتى بدت لنا في الأفق أضواء سـاطعة، واقتربت أكثر أصوات الآليات العسكرية، فأدركنا أننا أمام قافلة روسية.. نعم أول قافلة عسكرية تدخل إقليم دونباس بعد اعتراف موسكو باستقلال دونيتسك.

اقتربنا من مصدر تلك الأضواء، لنجد ما يزيد على ثلاثين دبابة من طراز تي – 90، كانت متوقفة على قارعة الطريق المظلم، وكأنها في طور التجمع قبل مواصلة المسير في اتجاه خط التماس الفاصل بين مناطق الانفصاليين والجيش الأوكراني.

توقفنا بسـيارتنا غير بعيد من تجمع الدبابات، وشـرع المصور في التقاط الصور من داخل السـيارة، وخرجت أنا برفقة السـائق والمرافق للتحدث إلى العسكريين الذين نزل بعضهم لتدخين السجاير، وآخرون لشرب الشاي أو تبادل أطـراف الحديـث في انتظار تلقي الأوامر بمواصلة الطريق. ما إن كشـف أمر وجودنا حتى اقترب عسـكري ملثم، لا تحمل بزته العسـكرية أي إشـارات أو أوشحة تبرز الفرقة التي ينتمي إليها أو رتبته العسكرية، وطلب منا بلطف مغادرة المكان فورا دون التقاط أي صورة. سألته دون تردد: هل أنت روسي؟ فرفض الإجابة، وأصر على أن نغادر.

غادرنـا المـكان وكان المصـور قد التقط عددا لا بأس بـه من اللقطات للدبابات وبعض الشـاحنات والجنود، وأدركت حينها أننا حصلنا على ما جئنا من أجله.. صور حصرية لدخول قافلة عسكرية روسية إلى دونباس بعد ساعات من الاعتراف الروسي باستقلال الإقليم. بدى الأمر وكأن المهمة انتهت عند هذا

الحد، لكن شيئا بداخلي، كان يرشدني إلى أن مزيدا من الآليات في طريقها إلى المنطقة فقررنا مواصلة المسـير والبحث.. وبينا نحن نسـتعد للمغادرة، طلبت فجأة من السـائق العودة إلى الطريق الرئيسـي المؤدي إلى دونيتسك من اتجاه الأراضي الروسـية، الذي لم يكن بعيدا عن موقعنا، وتوجهنا إلى هناك، وما إن وصلنا حتى عثرنا على مزيد من القوات.. عشرات الآليات، سيارات دفع رباعي عسكرية غير مرقمة، حاملات للجند وشاحنات عسكرية.. التقطتُ الصور بشكل سريع عن طريق الهاتف حتى أبادر بإرسالها فتبَثُّ على الشاشة.. توالت القوافل واحـدة تلـو الأخرى، وهو ما مكننا من الوقوف في مداخلة على الهواء ورصد كل تفاصيل تلك اللحظة التاريخية، بشكل حصري ومباشر.

إعلان الحرب وتسارع الأحداث

فـور خلودي للنوم في وقت متأخر كعادتـي أثناء التغطيات الميدانية، رنّ هاتفي بعد نحو ساعتين فقط، وطلب مني أحد الزملاء من قسم المراسلين، أن أكون جاهزا أمام الكاميرا في أسرع وقت ممكن، لأن روسيا أعلنت بدء العملية العسكرية.

فجر يوم الرابع والعشرين من فبراير/ شباط، أعلن الرئيس الروسي فلاديمير بوتين بدء ما سـماه "عملية عسـكرية خاصة في أوكرانيـا"، بعد يوم من طلب زعماء الانفصاليين في لوغانسـك ودونيتسك دعما عسكريا من روسيا لمواجهة "اعتـداءات كييـف المتكررة، وقصف مناطقهم وقتل المدنيين العزل" بحسـب قولهم.

كان اليوم الأول من الحرب زاخرا بالأحداث في تغطية مفتوحة، ستتصدر الشاشة أشهرا بأخبارها في طليعة النشرات.

كثفت روسيا من ضرباتها الصاروخية والجوية والمدفعية واجتياحها البري عبر محاور مختلفة داخل أوكرانيا، بشكل خاطف ومتزامن، فيما يطلق عليه في لغـة الحرب صدمة البدايـة، التي تهدف عادة إلى إعطاء زخم للهجوم، وإرباك الخصم وتشتيت خططه.

بعد يوم فقط سيطر الانفصاليون على أولى البلدات التي كانت تحت سيطرة

أوكرانيا، غرب خط التماس الفاصل بين الجانبين، وتحديدا بلدة نيكولايفكا التي تقع إلى الجنوب من مدينة دونيتسك.

دعانـــا المركز الإعلامي العســكري للانفصاليين إلى زيارة البلدة، بشـــرط توفرنا على ســيارة دفع رباعي بســبب صعوبة الطريق، وتضرر جســر يمر من المنطقة الرمادية التي كانت تفصل بين الجانبين.

بعد محاولات متكررة، فشلنا في العثور على سيارة دفع رباعي تقلنا برفقة الانفصاليين إلى بلدة نيكولايفكا، وتمكن فريق صحفي، روســي وآخر فرنسي، من توفير شرط وسيلة النقل، لكن رحلتهم تلك كادت تنتهي بمأساة بعد تعرض بلــدة نيكولايفكا لقصــف أوكراني بالمدفعية، لينجــو الصحفيون بأعجوبة من ذلك القصف، وهو الحادث الذي رسَّخ لديّ اقتناعا بأن الرحلات التي ينظمها العســكريون الانفصاليون ليست آمنة، وأن معظمها محفوف بالمخاطر، فما كان يهمهم (إلى حين تحول الإشــراف المباشــر على كل التحركات الإعلامية إلى وزارة الدفاع الروسية) هو إبراز ما حققوه من نصر، دون مراعاة لأمن الصحفيين.

بعد يومين من تلك الرحلة غير الموفقة، اقترح علينا الانفصاليون زيارة بلدة أخرى حدودية سيطروا عليها، فتوجهنا إلى بلدة "بيشيفيك" ضمن وفد ضم فريقا إعلاميا روسيا وفريق الجزيرة، وهو أول فريق صحفي أجنبي يدخل المناطق التي اقتحمهــا الانفصاليون بدعم من القوات الروســية، ورصدنا خلال تلك الزيارة وضع الجبهة عن قرب، وحجم التعزيزات العســكرية، وهي كلها مظاهر كانت تشــير إلى تقدم ســريع، بل خاطف، للقوات الروسية في ذلك المحور القريب من مدينة ماريوبول جنوبي إقليم دونباس.

ماريوبول.. عنوان بارز لمأساة الحرب

اشــتدت المعارك في جنوب إقليم دونباس وشــماله، ولم تشــهد الجبهة الموازية لمدينة دونيتســك، عاصمة الإقليم ومعقل الانفصاليين، أي تقدم يذكر، باستثناء قصف متقطع متبادل بين الجانبين.

تقدم الروس والانفصاليون في جبهات الجنوب، وبعد أقل من أســبوعين سيطروا على عشرات القرى وحاصروا مدينة فولنوفاخا، ثالثة المدن الكبرى في مقاطعة دونيتســك، فتوجهنا إلى محيط تلك المدينة لنقل أوضاع الجبهة القريبة

منها، وتحديدا إلى بلدة بوغاس التي سيطر عليها الانفصاليون، واتخذوها مركزا ميدانيا لعملياتهم باتجاه فولنوفاخا.

بوغاس بلدة يقطنها مزارعون يونانيون هاجر أسلافهم إلى المنطقة في بدايات القرن العشرين، وفوجئنا عند دخولنا إلى البلدة بأنه لم تصب مرافقَها أيُّ طلقة، فقد كانت الأوضاع في البلدة طبيعية رغم أنها تقع على خطّ النار، ورأينا بعض سكانها، من أحفاد المزارعين اليونانيين، يتجمعون قرب كنيسة وسط البلدة وكأنهم على يقين من أنه لن يتجرأ أحد من الجانبين على إطلاق قذيفة واحدة اتجاههم، وعلمنا فيما بعد أن البلدة سُلِّمت دون قتال، لحرص الجانبين الأوكراني والانفصالي، على تفادي المس بالمكون اليوناني في المنطقة تجنبا لإشعال نعرات عرقية هما في غنى عنها.

لقد عشنا في الطريق إلى بوغاس أصعب لحظات التغطية وأكثرها خطورة على الإطلاق، ففي الطريق إلى هذه البلدة عبرنا خط الجبهة مرتين، مرة عبر بلدة حدودية يطلق عليها دوكاتشايفسك، ومرة قرب بلدة نيكولاييفكا، وما إن اقتربنا من بلدة دوكاتشايفسك حتى تعرضت لقصف بصواريخ غراد دفعنا للتوقف إلى حين انتهاء القصف واتضاح المشهد، وبعد نحو ربع ساعة قرر المرافق العسكري أن نكمل الطريق، الذي يمر من وسط الجبهة، وما إن اجتزنا بلدة نيكولايفكا حتى شن الجيش الأوكراني قصفا عنيفا آخر حال بيننا وبين قذائفه بضع عشرات من الأمتار، مما دفعنا إلى التوقف والنزول من السيارات والانبطاح على الأرض نحو 10 دقائق قبل إكمال الطريق، وقد ألحق هذا القصف أضرارا بالطريق التي عبرناها، تبيناه مندهشين من حجمه وخطورته حين عودتنا من نفس الطريق بعد الانتهاء من تقرير أعددناه من بلدة بوغاس.

لقد مهدت السيطرة على فولنوفاخا الطريق أمام الانفصاليين والقوات الروسية للتقدم نحو مدينة ماريوبول على بحر آزوف، فأحكمت القوات الروسية طوقا عسكريا حول المدينة التي يقطنها نحو 400 ألف نسمة، قبل التقدم ببطء لاقتحام أحيائها من الغرب والشرق والشمال بشكل متزامن. وبعد أسبوعين من القتال، تمكنت من السيطرة على حي "تسانطرالني" الذي يقع على مداخل المدينة باتجاه مدينة زابوروجيا، وتلقينا دعوة للدخول إلى هذا الحي رغم أنه لم

يكن آمنا، خاصة أن المعارك ما زالت متواصلة وسط الشوارع الملاصقة له وعلى امتداد باقي أحياء المدينة، فدخلنا وتمكنا من رصد أوضاع سـكانه الذين خرج بعضهم للتو من الأقبية والملاجئ بعد أسـابيع من مكوثهم داخلها، وتمكنا من نقل صورة مأساوية من الحرب، تختزل مدينة دُمِّر نحو 90٪ من بنيتها التحتية. ومما زاد المشـهد مأسـاوية، رصدُنا لجثث المدنيين الملقاة على أزقة وشوارع المدينـة، والقبور التي حفرها للتو بعض أهالي الضحايا بين البنايات والدروب لدفن أقاربهم.. صورة تخللتها سحب الدخان المتصاعد من البنايات المحترقة، وقوافل السيارات التي تسعى لمغادرة المدينة، وطوابير الجوعى المدنيين الذين اختاروا البقاء داخل ماريوبول وهم يهيمون بين حطام المحال التجارية بحثا عما يسدون به رمقهم.. كانت بحق مشاهد لا تنسى.

المقاومة الأوكرانية

عامر لافي



عندما طلبت مني إدارة الجزيرة المشاركة في تغطية الحرب الروسية على أوكرانيا في الأول من مارس/ آذار 2022، كانت الحرب قد بدأت منذ نحو أسبوع. لقد أوكلوا إليّ مهمة تغطية المنطقة الجنوبية المطلة على البحر الأسود، فوجدنا أن أفضل طريق للوصول إلى مدينة أوديسا، أهم وأكبر مدن البحر الأسود الأوكرانية، هو الدخول برًّا عبر ملدوفيا، لكننا فوجئنا بأن ملدوفيا، تحت ضغط روسي أغلقت أجواءها تماما، فقررنا الذهاب إلى رومانيا، ومنها برًّا إلى ملدوفيا، ثم إلى الحدود الأوكرانية التي وصلنا إليها بالسيارة بعد نحو عشر ساعات من القيادة.

منذ وصولنا إلى المعبر، وحتى عندما كنا في الطرف الملدوفي، بدأنا نعيش أجواء الحرب، ونشعر ببشاعة ما ينتظرنا خلف هذه الحدود؛ فحالة الهرج والمرج كانت تسيطر على الموقف.. أعداد هائلة من الناس تريد مغادرة البلاد، وكنا، أنا والزميل المصور نبيل مزاوي من مكتب الجزيرة في لندن، وستيف المرافق الأمني لنا في هذه التغطية، الوحيدين الذين نريد الدخول!

بعد عبورنا الحدود إلى أوكرانيا كان المشهد أكثر سوداوية فقد كانت طوابير السيارات تبدو كأنها بلا نهاية، والازدحام في كل مكان، وشبكة الاتصالات والإنترنت مقطوعة، ولم نعد قادرين على التواصل مع مرافقنا ومترجمنا "عامر"، وهو بالمناسبة مواطن أوكراني من أصل سوري يعيش في أوديسا منذ أكثر من ستة وعشرين عاما، وتصادف أنه يحمل نفس اسمي.

بعد ساعات طويلة من جرِّ الأمتعة بين أمواج عاتية من الناس والسيارات التقينا بمرافقنا، الذي خرج من منزله في التاسعة صباحا ليصل إلى المعبر بعد السابعة مساء، مع أنه لا يبعد عنه سوى نحو ستين كيلومترا! وعلى الفور تحركنا نحو أوديسا. أُخبرنا بأن الطريق يحتاج إلى أقل من ساعة ونصف للوصول إلى الفندق، وقد كان الفندق الوحيد المفتوح في أوديسا تقريبا. كنا نمني النفس بالوصول والخلود إلى النوم بضع ساعات قبل أن نبدأ العمل، وذلك بعد هذه الرحلة الطويلة؛ فقد غادرنا العاصمة الرومانية بوخارست حوالي الرابعة فجرا، لكن في الطريق استقبلنا حاجزٌ للجيش الأوكراني وأخبرنا بأنه لن يسمح لنا

بالمرور بسبب حظر التجوال الذي يبدأ الساعة السابعة مساء.. أخبرناه بأننا صحفيون، ورجوناه أن يساعدنا ويتركنا نمر، فقال إن هذا سيشكل تهديدا لحياتنا، وإنه إن لم تستهدفكم المسيَّرات الروسية فقد يستهدفكم جنودنا في عتمة الليل وسط حالة التوتر الشديد التي تسيطر على المشهد، ونصحنا بالبقاء بجوار الحاجز ومحاولة النوم داخل سيارتنا، وهو ما قد حصل؛ فكانت ليلة موحشة، شديدة البرودة، ننام داخل سيارة في مكان مظلم لا تعلم عنه شيئا ولا تعلم مدى خطورته.

في الصباح دخلنا أوديسا فوجدنا المشهد بائسا في هذه المدينة التي توصف بأنها عاصمة السياحة والاقتصاد في أوكرانيا. كنا وحدنا في الفندق، معظم المحال التجارية فارغة، الشوارع مهجورة، أصوات صافرات الإنذار لا تفتر تدوي طوال اليوم.. ورغم أن المدينة لم تتعرض للقصف فإن ساكنيها كانوا فزعين؛ خاصة بعد أن رأوا القوات الروسية تتحرك من شبه جزيرة القرم شمالا وغربا وتسيطر بسهولة على خيرسون سيطرة كاملة، وهي إحدى أكبر محافظات أوكرانيا مساحة، ثم تتوجه غربا نحو ميكولايف... فقد كان الناس يعتقدون أنه في غضون يومين أو ثلاثة ستكون تلك القوات في مدينتهم.

بدأت تغطيتنا بتناول أحوال المدينة، وكان القصف الروسي يستهدف ريف أوديسا، حاولنا الوصول إلى أماكن القصف هناك فكان ذلك ميسرا لنا حينا وصعبا علينا حينا آخر، خاصة إن كانت تلك الأماكن ذات طبيعة عسكرية. لكن بعد بقائنا عدة أيام وصلنا إلى اقتناع بأن مدينة ميكولايف هي مكان التغطية الأفضل في هذه المرحلة، ذلك لأن المعركة الحقيقية فيها، ورغم هذا الاقتناع فإن الأخبار التي تتوارد من ميكولايف كانت مروعة.

تحدث مرافقنا مع عدد من أهالي ميكولايف فأخبروه بأن الأحياء الغربية أكثر أمنا لأنها حتى الآن لم تتعرض للقصف؛ إذ كان القصف متركزا على الأحياء الشرقية، فقررنا الذهاب، لكن قبل ذلك كان علينا تدبير مكان نقيم فيه بمدينة شبه فارغة، وبدأ مرافقنا يتواصل مع الفنادق وأصحاب البيوت المفروشة إلى أن نجح في إقناع أحد الفنادق بفتح أبوابه، على اعتبار أننا نريد أربع غرف بالسعر الذي يحددونه، فحملنا كل ما تمكنا من حمله من أوديسا، وبخاصة

المواد الغذائية، إذ كانت بعض البقالات لا تزال مفتوحة فيها، وهو ما يصعب في ميكولايف.

تحركنا في طريق طوله أقل من مئة وخمسين كيلومترا لنصل بعد أكثر من أربع ساعات، ليس فقط لسوء حال الطريق بل أيضا بسبب كثرة الحواجز العسكرية على طول الطريق وما يجري فيها من عمليات تفتيش.

بمجرد دخولنا ميكولايف سقطت أمام أعيننا عدة صواريخ راسمةً مشهدا أثار الرعب في أنفسنا، لكن بعد الاحتماء قليلا وجدنا حس الصحفي يجبرنا على الخروج والبحث عمَّا أسفرت عنه هذه الصواريخ، وبعد التقصي علمنا أن صاروخا كبيرا وقع على مقربة منا لكنه لم ينفجر، فتوجهنا إليه وظهرنا من هناك في أول مقابلة على الهواء من ميكولايف.

كانت المعارك تدور على أطراف ميكولايف لكن المفاجأة كانت عندما اكتشفنا أن الجيش الروسي كان قد دخل المدينة في الأيام الأولى للحرب، فقد أرسل آنذاك ثلاث أو أربع دبابات فقط للسيطرة على المدينة، ويبدو أن الروس توقعوا أن يتكرر سيناريو شبه جزيرة القرم عام 2014، أو ربما سيناريو خيرسون، وتوقعوا أن يكون هذا العدد القليل من الدبابات كافيًّا للسيطرة على ميكولايف ولم يدروا أن الأوكرانيين نصبوا لهم كمينا، فسمحوا لهذه الدبابات بالدخول ثم استدرجوها إلى وسط المدينة قبل أن يستهدفوها فيدمروها كلِّيًّا.

جبهات القتال كانت قريبة جدا من المدينة، فكانت تبعد من جهة الجنوب الشرقي خمسة وعشرين كيلومترا، ومن الشمال الشرقي والشمال نحو عشرة كيلومترات، وقد سيطر الروس على مطار المدينة، فنمنا ليلتنا الأولى على أصوات قصف متبادل واشتباكات طوال الليل. يا لها من ليلة كانت مرعبة، لكن الغريب أنه مع مرور الأيام بدأنا نعتاد الأمر وأصبحنا نستسلم للنوم بسهولة حتى دون التوجه إلى الملاجئ عند سماع دوي صافرات الإنذار. لا أدري هل كان ذلك شجاعة؟ أم تهورا؟ أم استسلاما للقدر؟ أو ربما استسلاما لوسادة النوم بعد يوم طويل من العمل.

استمرت تغطيتنا في الجنوب ستة وأربعين يوما، معظمها كانت من ميكولايف ونواحيها وقراها، وكنا نعود ليوم أو يومين إلى أوديسا حسب التطورات الميدانية،

وفي كل مرة كنا نعود فيها إلى أوديســا كنا نُفاجَأ بحجم التغير. ففي كل زيارة كنــا نلاحظ أن الحياة تعود تدريجيا إلــى المدينة ويزداد صخبها، وقد أرجعت ذلك إلى سببين: الأول هو أن الناس أدركوا أن الجيش الروسي ليس كما كانوا يتخيلونه "جيشا لا يُقهر"، وأنه صار من الصعب عليه اجتياز ميكولايف؛ خصوصا على وقع الضربات الموجعة التي تلقاها هناك والتي أجبرته على الانســحابات والتراجع من الميدان. أما الســبب الثاني، فهو أن الإنســان يتمسك بالحياة رغم كل الظروف، فهو دائما ما ينسى أو يتناسى ويتكيف مع الظروف المحيطة رغم هول المآسي التي يشاهدها يوميًّا، ويسعى نحو الحياة مدفوعا بغريزة البقاء. وقد شاهدت شيئا مشابها لهذا السلوك أثناء تغطيتي للصراع في سوريا وليبيا والعراق وأذربيجان، بل في ميكولايف نفسها التي لم يتوقف قصفها، وظلت خطرة إلى أن غادرتهــا؛ فقــد اعتادت هي أيضا الحياة تدريجيا، وآية ذلك أنك كنت حينما تأتي إلى عين المكان الذي شهد في اليوم السابق قصفا وقتلا تجد بعض الباعة يعرضون بضائعهم والمارة يبتاعون منهم احتياجاتهم.

على كثرة الأحداث التي غطيناها في أوكرانيا فإنني لا أنسى ما حييت ذلك اليوم الذي تأثرت فيه كثيرا بهذه الأحداث الثلاثة.

كنا في أحد الأيام نغطي خبرا عن قصف مستودع كبير للمواد الغذائية في أطراف ميكولايف، وبمجرد أن انتهينا أخبرني مرافقنا أن هنالك صاروخا سقط فــي قريــة قريبة وأنه دمر منزلا وقتل كل من كانوا فيه، فترددنا في الذهاب إلى هناك لأننا لا نعرف المكان جيدا، ولا ندري مدى خطورته؛ خصوصا أنني كنت على موعد للظهور على الهواء في نشرة المنتصف بعد نصف ساعة، وهي نشرة مهمة ضمن خريطة نشرات الجزيرة، لكننا في النهاية عزمنا أمرنا وقررنا الذهاب.

كانت القرية أبعد مما تصورنا، والطريق إليها ترابية غير معبدة. كانت تقع على مقربة من مطار المدينة؛ أحد الجبهات الساخنة في تلك الفترة. من حسن حظنا أننا وصلناها قبل دقائق من موعد النشــرة فبدأنا بســرعة التجهيز للمقابلة، وبمجــرد ظهــوري على الهــواء، وخلفي المنزل المدمر، اســتدرت لكي أترك المجــال للكاميرا فإذا بي أُفاجَأ بأن رجــال الإنقاذ بدؤوا إخراج جثث متفحمة بشــكل مخيف بحيث يســتحيل التعرف على أصحابها. لقد كان المشهد مؤلما

وصادما لي وللمشـــاهدين على الشاشة، وهو مشهد لم أكن أتوقعه. وأذكر أنني قلـــت في تلك المقابلة "بصعوبة جدا عثرنـــا على هذه القرية الفقيرة، لكن هذا الصاروخ وجد طريقه بسهولة إلى هذه العائلة البسيطة التي تتكون من جدة وأم وابنها الصغير".

الحدث الثاني كان اســتهداف مبنـــى المحافظة في ميكولايف. في حوالي الســـاعة التاســـعة صباحا، وبينما كنت أتحدث مع أحد الزملاء في الدوحة لكي نتفـــق على مواعيد المقابلات الصباحية، ســـمعنا صـــوت انفجار ضخم، وكأن المنطقـــة ضربها زلـــزال عنيف، فأغلقت الهاتف لكي أحـــاول معرفة ما جرى، فعلمنا أن مبنى المحافظة اســـتُهدف. لم يكن ذلك المبنى يبعد عنا ســـوى ثلاثة كيلومترات على أقصى تقدير، تذكرت ســـاعتئذ أننا كنا قبل ثلاثة أيام أمام ذلك المبنى وفي نفس تلك الساعة نجري مقابلة مع محافظ ميكولايف، وبدأت أتخيل لو أن هذا القصف، الذي أتى على جزء كبير من المبنى وقتل أكثر من ســـتين شخصا، قد وقع لا قدر الله ونحن أمامه.

الحدث الثالث الذي تأثرت به كثيرا كان أثناء زيارتنا لناحية باشـــتنكا في ميكولايـــف، التي أعددت منها آخر تقاريري قبل مغادرة أوكرانيا. كانت القوات الروسية في بداية الحرب قد سيطرت على هذه الناحية وكذلك فعلت بعدد من قراها، ثم نجحت القوات الأوكرانية في استعادتها، فذهبنا إلى هناك لتغطية ذلك الحدث.

تركت زيارة باشـــتنكا في نفســـي أثرا كبيرا لأنني، من خلال تتبع مســـار حركة الجيش الروســـي، لم أشعر فقط بمأساة المدنيين بل شعرت أيضا بمعاناة الجنود الروس أنفسهم الذين أُرسلوا إلى معركة ضخمة وشرسة إلى هذا الحد دون تخطيط محكم، ودون اســـتعداد جيد، فكانوا وقودا لمعركة ربما لو خيروا لامتنعوا عن المشاركة فيها.

توجه رتل روســـي كبير إلى باشتنكا، فتركه الجيش الأوكراني يعبر الجسر المؤدي إلى المدينة ثم أوقعه في كمين دمر العديد من آلياته ومعداته العسكرية، وبقي بعض هذه القوات في المدينة لا يدري ماذا يفعل، في حين توجه -أو إن شـــئت الدقة فقل هرب- بعض آخر إلى القرى المحيطة. أقول هرب لأنه ليس

من المتصور أن تكون تلك القرى الفقيرة النائية غير الاستراتيجية ذات الطرق الوعرة هدفا للجيش الروسي يستحق السيطرة عليه.

لقد شاهدنا آثار الآليات الروسية المدمرة، ورأينا الخنادق التي حفرها الجنود لحماية أنفسهم من القصف الأوكراني، وعاينا ما تركوه خلفهم من أمتعة وأطعمة وجثث لم يتمكنوا من دفنها فقام القرويون بدفنها قرب آلياتهم المدمرة. وعند انسحابهم، بعد نحو أسبوعين من القتال، أخبرنا القرويون عن مشاهدتهم لكثير من الجنود الروس وهم يبكون، ويشتمون قادتهم، ويتهمونهم بتزويدهم بأسلحة قديمة، وبأنهم دفعوهم إلى المعركة من دون خطة، كما تحدث القرويون الأوكرانيون إلينا عن جنود روس آخرين سرقوا سيارات هؤلاء القرويين ليهربوا بها بعد أن دُمّرت عرباتهم. كانت مشاهد مؤلمة ومؤثرة ومعبرة.

كان السابع عشر من أبريل/ نيسان 2022 هو يوم عودتنا إلى إسطنبول. وللمفارقة، كان طريق عودتنا سهلا مقارنة بما كان عليه الحال يوم قدومنا، فتحركنا من أوديسا إلى المعبر الذي قدمنا منه، وكان الطريق شبه فارغ، حيث اختفت طوابير سيارات الهاربين التي كنا قد شاهدناها، وفي المعبر لم يكن أمامنا سوى نحو سبعة أشخاص، وبعد أقل من عشرين دقيقة كنا قد اجتزنا الحدود الملدوفية، ولم نُضطر إلى التوجه إلى رومانيا، فقد فتحت ملدوفيا مجالها الجوي، وخلال ساعتين ونصف كنا في مطار عاصمتها كيشيناو.

لقد عدت من هذه الرحلة وهذا السؤال يدور في ذهني: تُرى هل فوجئت روسيا فقط بحجم المقاومة الأوكرانية التي تصدت لها؟ أم أن الأوكرانيين أنفسهم فوجئوا بأنفسهم، وبما أظهروه من بسالة وما أبدوه من شجاعة؟

عادة سبوتنيك

نور الدين الدغير



ماريوبول.. مدينة الأشباح

لم تعد ماريوبول تلك المدينة التي ألفها أهلها، إذ سرعان ما ينبعث أمامك صوت لا تعرف مصدره ليقول لك: هل رأيت مدينتنا الجميلة كيف أصبحت وماذا حل بها؟

ماريوبول، آخر قلاع أوكرانيا على بحر أزوف، ضاعت معالمها بسبب القتال الذي دار بين القوات الأوكرانية والقوات الروسية ومعها قوات الانفصاليين في إقليم دونيتسك. أصبحت أحياؤها متشابهة يجمع بينها سواد القذائف والانفجارات التي وضعت بصماتها على جدران المنازل المدمرة. على أطراف منازلها لا تزال آثار الصواريخ تحكي أن هذه المناطق شهدت معارك قوية أجبرت القوات الأوكرانية على التراجع، وما بقي من سكان الحي على التشبث بالبقاء على أمل أن تعود الحياة إلى طبيعتها.

أقف وأنا بكامل عدتي لتغطية الحروب؛ سترة واقية وغطاء للرأس، أمام سيارات لم تُبقِ منها المواجهات المسلحة إلا هياكلها، وإذ بأطفال يقطعون لعبهم ويخرجون منها مسرعين يتملكهم الخوف منا، ويزيدهم هلعا صوت عوائلهم على الطرف الآخر من الحي يقولون لهم: لا تتحدثوا إليهم.

المشهد في هذه الأماكن يجعلك تستحضر كل أفلام نهاية العالم التي خرجت من هوليود، فيلم الطريق (The road) حيث يحاول الأب "فيغو مورتنسن Viggo Mortensen" والابن "كودي سميث مكفي Kodi Smit McPhee " البقاء على قيد الحياة بعد رحلة هرب من الشمال المتجمد إلى الجنوب الدافئ المدمر المليء بالمخاطر، أو فيلم "The Day After" الذي لا يبتعد كثيرا في جزء من تفاصيله عما يحدث في أوكرانيا، فالفيلم وإن انتهى باستعمال السلاح النووي في المواجهة بين حلف الناتو وحلف وارسو، فلا أحد اليوم يرغب في ذلك على الأرض الأوكرانية، والكل على هذه البقعة يبحث عن البقاء على قيد الحياة رغم أن الحرب حولت حياتهم إلى جحيم، فالبياض الذي يطبع أطفال ماريوبول ضاع أمام سواد الدخان المتصاعد جرّاء القتال الدائر في المدينة، وأمام الأوساخ التي وجدت طريقها إليهم بعد أن فقدت المدينة منابع

مائها ومصادر غازها وطاقتها.

يغادر الأطفال السيارة على عجل باتجاه أصوات آبائهم المتصاعدة من جهة المنزل الذي يقطنون فيه، فلم يألفوا بعد وجود وجوه غريبة تحل في هذا الوقت العصيب بمدينتهم التي انعدمت فيها مرافق الحياة.

هناك من الساكنة من يتلمس في وجودنا حلا ولو بسيطا لمشاكلهم؛ امرأة مسنّة تقترب منا لتسألنا هل نحمل معنا ما يذهب عنها شبح الجوع الذي بدأ يحاصر المدينة؟ ورجل هرم يطلب سيجارة.

غادرنا هذا الحي المنكوب فإذا بنا ندخل فجأة في ساحة لا يزال القتال فيها مستمرا. تحاول القوات الروسية والانفصاليون السيطرة على وسط ماريوبول، وعلى مسافة لا تتجاوز 500 متر عن تلك المعارك وجدنا أنفسنا على مقربة من أماكن إطلاق النار، ما يفصلنا عنها سوى منازل غادرها أهلها. تسللنا إلى المكان بعد أن استطعنا الإفلات من أعين قوات تابعة للانفصاليين كانت تراقب المكان عن بعد، فالحس الصحفي والبحث عن الحقيقة يدفعانك للمغامرة ولو للحظات تصل بك أحيانا إلى حافة الموت لكن حذار أن تغرق في المغامرة فتصل فعلا إلى الموت، فنهايتك في هذا المكان قد تكون برصاصة طائشة أو رصاصة قناص يهوى القتل عن بعد، ففي زمن الحرب يدخل في دائرة العدو كل من وُجد على الطرف الآخر.

كان همنا في المقام الأول نقل الصورة كما رأيناها بعيدا عن أي مؤثرات عاطفية أو شحنات سياسية. ما رأيناه في ميدان القتال بماريوبول هو تقدم القوات الروسية والانفصاليين على حساب القوات الأوكرانية.

كنا ننقل ما يجري ملتزمين بما تعلمناه من إجراءات أمن وسلامة الصحفيين أثناء تغطية الحروب: لا تتحرك في الفضاءات المفتوحة، حاول الاحتماء بأسوار المباني، خذ مكانا لا تُحسب فيه على جهة دون أخرى حتى لا تكون هدفا مشروعا، احرص على ألا تجد نفسك بين فريقي الاشتباك فتقع أسير تبادل الرصاص والقذائف، خذ بعين الاعتبار نصائح وتوجيهات الجهة المسيطرة على الأرض؛ فهي أدرى بمكامن الخطر.

وبينما أنا في غمرة التغطية ووسط هذه المخاطر إذ برسالة تصل إليّ

عبر هاتفي الجوال من عائلة مغربية تريد الاطمئنان على ابن لها يُدعى ياسين، انقطعت أخباره في ماريوبول. عرفنا اسمه والحي الذي يقطنه واقتربنا فعلا من هذا الحي لكننا لم نستطع دخوله لشدة القتال فيه، فقد كان من الأحياء المهمة عسكريا والخطرة أمنيا لقربه من ميناء ماريوبول، وقد نصحني الفريق العسكري للانفصاليين بعدم الاقتراب فأحسست بحسرة وتركنا أمر هذا الشاب المحاصر بيد الله تعالى.

بقيت أياما أرقب الدخول إلى ذلك الحي دون جدوى، وحينما حانت لحظة مغادرتي بعد انتهاء مهمتي أسلمت الراية لزميلي أمين درغامي وطلبت منه مواصلة البحث عن ياسين، وقد وصل إليه حقا بعد أيام من سيطرة القوات الروسية على الميناء. لم يكن ياسين إلا رب عائلة مكونة من يوسف، الابن الوحيد، وناتاليا زوجته الأوكرانية التي تعرف عليها في زيارة لها للمغرب، وجد أمين تلك العائلة سالمة بعد أن قضت أياما في ملجأ تحت الأرض، واطمأن الأهل في المغرب على ابنهم الذي ستستمر حياته لكن ربما بفصول جديدة غير تلك التي ألفها قبل الحرب.

شخصيات من دفتر الحرب

ياسر

في الروايات التي تدور أحداثها أثناء الحروب، كراوية "وداعا للسلاح" لإرنست همنغواي، على سبيل المثال، نجد شخصيات خيالية تعبر عن أخرى حقيقية، فليس الملازم فردريك هنري إلا همنغواي، وليست الممرضة " كاترين باركلي" إلا الممرضة التي عشقها "أغنيس فون كوروواسكي"، وبعض الشخصيات التي قابلناها في أوكرانيا لا تبتعد كثيرا عن شخصيات رواية "ودعا للسلاح". فأغلب الناس يحسون بأن الحرب فُرضت عليهم، وبعضهم يفكِّر في الفرار منها، أو على الأقل إيجاد ذريعة تمنعه من الذهاب إلى جبهات القتال. توسل هنري في رواية همنغواي بالخمر ليبقى مريضا بالمستشفى، وانتهى به المطاف إلى الهرب مع معشوقته إلى سويسرا فارا من الحرب، سيناريو رأيته يتكرر في دونيتسك وربما في أوكرانيا كلها، فبعض الشباب يبحثون عن مسالك تقيهم ساحات الحرب، ولم يكن "ياسر" الذي تعرفنا عليه في دونيتسك إلا هنري في رواية

وداعا للســلاح، إذ تحول من طالب عربي في أوكرانيا إلى مواطن في مقاطعة دونيتســك الانفصالية المعترف بها من قبل روسيا. كانت شرطة دونيتسك تقيم حواجزها بمختلف أطراف المقاطعة لاصطياد من بلغ ســن الرشد وإرساله إلى جبهــات القتال فاختار بعض القوم البقاء في منازلهم واختار بعض آخر مغادرة المقاطعة، حتى غدا الطابع النسائي هو الغالب على من يتحرك في المدينة ومن يشتغل في أغلب حِرفها.

ونعود إلى ياســر، الشــاب الذي تحول من طالب إلــى تاجر يتحرك قبل الحرب بحرية ويدير أمواله ومؤسساته المالية، فقد وجد جنسية الدولة الجديدة التي أصبح يحملها تطارده، وربما قد ترمي به على حين غرة في ساحة قتال يرى أنــه لا ناقــة له فيها ولا جمل. لم تعد طلعاته من منزله إلا إلى حديقة المجمع السكني الذي يقطن فيه أو خطوات قليلة إلى الأمام. التقيته على مائدة الإفطار أحد أيام رمضان وحكى لي قصته وكيف أنه يخشــى ألا تُكتب له العودة إلى بلــده الأم ليقابــل والدته التي لم يرها منذ أكثر من عقد من الزمن، وتركته وهو يأمل انتهاء تلك الحرب سريعا ليكون أول شيء يفعله هو أن يُكَحِّلَ عينيه برؤية الوالدة.

نيكيتا

ومن الشخصيات التي لا أنساها في تلك التغطية شخصية الشاب الأوكراني "نيكيتا"، أســجلها هنا لعل أحدا يتذكرها، فهو ليس من ذوي المناصب المهمة ولكنه يتحلّى بروح وصفات إنسانية رائعة. لقد كان مرافقنا طيلة تغطية الحرب، تطوع بوقته وبســيارته التي كان يعمل عليها ســائقا قبل الحرب، ليكون مرشدنا إلى مناطق قل من دخلها من المرافقين الصحافيين في دونيتسك، ذهبنا معا من ماريوبول إلى مارينكا، وياسينوفاتا، وإلى أطراف نوفاميخيلوفكا، كنا نقرر مساءً الانطلاق في اليوم التالي إلى إحدى المناطق الساخنة، فيتحدث ضاحكا مطلقا كلمته الإنجليزية المعهودة "help" لكن على الطريقة الروســية "khelp"، ونجده فــي اليــوم التالي ينتظرنا دون أي امتعاض أو خوف، على عكس بقية المرافقين في دونيتسك الذين يفضلون التحرك فقط داخل المناطق الآمنة.

لم يكن نيكيتا إلا شــابا أوكرانيا رســم لنفسه آمالا وهو بالجامعة بمستقبل

جيد، ليجد نفسه تحت وقع حرب الانفصال عن أوكرانيا التي انطلقت عام 2014 سائقا لسيارة أجرة يعيل بها عائلته المكونة من زوجة وطفل صغير، وليوقن بعدها أن مصير الإنسان ومستقبله لا تحدده فقط رغباته وإرادته المنفردة وإنما هما رهن بالأوضاع السياسية للدولة التي يعيش فيها والإقليم الذي يوجد في محيطه. لم يتخلّ نيكيتا عن هويته الأوكرانية حتى بعد انفصال دونيتسك عن أوكرانيا، وهو حال الكثيرين من سكان الإقليم، فلربما يعودون إلى الوطن الأم يوما ما، أو قد تكون جنسيتهم الأوكرانية الملاذ الآمن لهم حينما يقررون الهجرة إلى خارج دونيتسك، وبالتحديد إلى الدول الأوروبية أو الولايات المتحدة الأمريكية، وعلى ما يبدو فإن أغلبهم يرغبون في أن يكونوا هناك تخفّفًا من هذه الأوضاع الصعبة التي يعيشونها.

كان نيكيتا مسيحيا يحترم المشاعر الدينية لمن هم على غير دينه. في يوم عودتي من دونيتسك إلى روستوف الروسية، نهار أحد أيام شهر رمضان الفضيل، استأذنني قبل أن يشتري لنفسه "ساندويتش". أكبرت فيه هذا الموقف، وظل طول الطريق يعرب عن أسفه حتى رفعت عنه الحرج بالقول إنه غير ملزم بالصيام أو البقاء جائعا لمدة طويلة، كما أن أكله لوجبته وهو بجواري لا يشكل لي أي ازعاج.

على منوال رواية "ثلج حار" للأديب الروسي يوري بنوداريف، التي وصف فيها معركة ستالينغراد خلال الحرب العالمية الثانية، كان كذلك شتاء إقليم دونباس حارا رغم ثلوجه، أحسَّ به نيكيتا وأمثاله، إذ تكسَّرت كل آمالهم عند أول قرار سياسي في كييف بالابتعاد عن موسكو، وعند أول طلقة في دومباس أطلقتْ شرارة قتال الإخوة الأعداء. قد لا يكون نيكيتا بطلا في قصة حرب يؤلفها أحد الأدباء، كما كانت "رويا" الممرضة، بطلة رواية بانداريف، لكن سواء تذكر أحدٌ نيكيتا أم لم يتذكره فما هو سوى إحدى الشخصيات -وثمة آلاف غيرها- التي كُتب عليهم أن يعيشوا يوميات حربٍ، غير معروفٍ متى تنتهي؛ يتجرعون آلامها، ويكابدون مآسيها.

عادةُ سبوتنيك

لا يوحي لك أيّ شيء في دونيتسك بأن هذه المنطقة تشهد حربا سوى أصوات القذائف التي تخبرك بذلك. في لحظة عمل واستعدادًا لمداخلة على

الهواء يتوقف رجل ويستنكر لبسَنا السترة الواقية ويرفع صوته "ليست لدينا حرب هنا"!

لا يريد الرجل أن يشــغل باله ولو للحظة بأن دونيتســك لم تعد تلك التي كانت قبل حرب عام 2014 ولا عام 2022.

رغم الحرب فالحياة لم تتوقف في مدينة دونيتسك، ولم تتسخ شوارعها، ولم نر مشردين في طرقاتها، ولا متسولين في أزقتها. في الساعات الأولى من كل صباح ترى الكل يحث الخطى متجها إلى عمله؛ فلا مجال لإضاعة الوقت، جميعُ مَن هنا يتحركون وكأنهم عقارب ساعة، تراهم وكأنهم يعيشون على إيقاع المرحلة الشيوعية، فهم لا يفصلون أنفسهم عن الدولة، ولربما يعتبرون أنفسهم الدولة، لا يسمحون لمنطقتهم بأن تضيع من أيديهم في لحظة غضب على حرب لم يكونوا من أشعلها.

لم تغب عادةُ ســبوتنيك (أو يوم الســبت) التي ورثوها من زمن الاتحاد السوفياتي، فبها يحافظ الأهالي على تعاونهم من أجل نظافة مناطقهم.

ونحن في الطريق إلى حدود مدينة أدفييفكا لفت نظرنا ســكان منطقة في ماكييفكا؛ منهم من يحمل مكنسة، وآخر يحمل سطل ماء، وثالث وراءهم يجمع ما تم كنســه في أكياس ويضعها في مكان مخصص إلى أن تأتي شــاحنة البلدية فتحملها.. عادةٌ يواظب عليها الأهالي ولا ينتظرون خدمات البلدية، ولا يرمون كل الثقل عليها. ما يهمهم الآن هو أن تبقى منطقتهم في أحســن حلة حتى في زمن الحرب.

والحال نفســه عند نزول قذيفة بحي ســكني مصدرها الطرف الأوكراني، كما رأينا في أحياء كييفسكي، وبتروفسكي، ومناطق في ماكييفكا، وياسينوفاتا.. في حي كييفســكي على ســبيل المثال بعد أن سقطت قذيفة على الحي وذهبنا لتصوير آثارها اقتربت منا ســيدة مسنّة وقالت لنا: "لا توجد هنا قواعد عسكرية أو مقرات للجنود فلماذا نُستهدف؟".

وليس للســكان بتلك المناطق إلا أن يســارعوا إلى لملمة جراحهم، ورفع آثار الدمار وكنس بقايا الزجاج المتهشم وتنظيم المكان.. فالسلطات هنا لا تأتي إلا بفرق الهندسة العسكرية لتحدد طبيعة القذيفة ومصدرها لتُجري حساباتها من أجل الرد على مصدر القذيفة، أما المواطن فلا ينتظر الســلطات لترفع عنه آثار

الدمار بل يقوم بذلك بنفسه.

إنها عادة سبوتنيك (أو عادة السبت) السوفياتية التي جعلت المواطنين في دونيتســك جاهزين للطوارئ، قادرين على سد فراغ السلطة المنشغلة بالحروب وأزمات أخطر.

مقاتل أجنبي

ببدلتــه العســكرية التي لم تفارقه منذ أن تطــوع للقتال إلى جانب القوات الانفصاليــة عــام 2014 كان يجلس إلى جانب رفاقــه، أو لنقل إلى جانب أبناء وطنه الجديد، فالرجل لم يعد فرنسي الإقامة منذ ذلك الوقت.

ألقيت عليه التحية بالفرنسية التي سهّلت سبل التواصل بيننا، ورحنا نتجاذب أطراف الحديث، وقد كانت بصحبتنا زميلة تعرف كلًّا منا، تشــتغل في إحدى المؤسسات الإعلامية الفرنسية، جاءت إلى هنا لتنقل وقائع الحرب.

كان الرجــل خبيــرا بالقتال، عالمــا بأدق تفاصيل معركــة مصنع الصلب "أزوف اســتال"، وقد توقع أن تســتلم القوات الأوكرانية في هذا المصنع لعدم تناســب القوة، والحصار المطبق عليها، خاصة أن قوة النيران الروســية التي ما فتئت تنصب على هذا المصنع كانت هائلة، وهو ما حدث بالفعل بعد أســابيع معدودات من المقاومة.

كان جليسي يتحدث وآثار إصابات قديمة على يده توثق أنه خبر المعارك في دونيتسك وخبر أدق تفاصيلها.

وهكذا هي الشخصيات التي يمكن أن تقابلها في أماكن الحروب والنزاعات.. عند كلٍّ منها قصة تُروى وحكاية تُســمع.. وفي كل الأحوال رواياتهم لا تُنســى حتى وإن لم يذكرها المؤرخون.

ميديكا الفاضلة

ستير حكيم



لـــم تكن المـــرة الأولى التي أســـافر فيها على متن طائرة، لكنها ليســـت كسابقاتها. كنت حريصة على مراقبة ما يحدث خلف زجاج نافذة الطائرة. عندما بدأت الهبوط على مدرج مطار وارســـو الدولي، يوم الثلاثاء، التاسع والعشرين من شهر مارس/ آذار من عام 2022.

إنهـــا بولندا، التي قفزت إلى واجهـــة الأحداث والأخبار وأصبحت عنوانا رئيسيا، بعد أن تحولت حدودها مع أوكرانيا إلى واحد من أهم المعابر لعشرات الآلاف من الأوكرانيين الهاربين من أتون الحرب الأوكرانية الروسية الدائرة في بلادهم منذ الرابع والعشرين من فبراير/ شباط الماضي (2022).

طـــول الحـــدود بين أوكرانيا وبولنـــدا يبلغ أكثر من خمـــس مئة كيلومتر، وتربطهما أربعة معابر يدخل منها الأوكرانيون إلى أراضي بولندا، وهناك حوالي ثمانية ملايين شـــخص يعيشون في المنطقة الحدودية، مقسمين بالتساوي تقريبًا بيـــن بولندا وأوكرانيا، وتعد هذه الحـــدود بين الدولتين من أهم معابر الوصول إلى الاتحاد الأوروبي الذي انضمت إليه بولندا عام 2004، ولذلك فهي تخضع لحراسة مشددة، للحد من تهريب البضائع والهجرة غير الشرعية.

في تلك الليلة التي وصلت فيها إلى العاصمة البولندية لم أنم إلا ساعات محدودة، فقد انشـــغلت بجمع معلومات أكثر عن تاريخ العلاقات بين روســـيا وأوكرانيا وبولندا ودول الجوار؛ فالتاريخ، وإن تغير، يكرر نفسه عادة.

كان جـــل اهتمامـــي منصبا على معبر (ميديكا) الذي ســـيضعني عند عتبة الأراضي الأوكرانية، وهي المحطة الأولى التي ســـأبدأ منها العمل في تغطيتي. كنت مدركة أنني ســـأرى وأقابل هناك قصصا عديدة ومختلفة، بحكم تغطياتي الســـابقة في الشأن الإنســـاني وعمليات اللجوء والنزوح في العراق وسوريا وما يترتـــب عليهـــا من قصص تكون أحيانا أقرب إلى الخيال، فهكذا هي الحروب، تحمل في طياتها أحداثا وحكايات تعجز الصور والكلمات كثيرا عن نقلها نقلا تاما مهما كانت مهارة الصحفي وخبرته.

بـــت ليلتـــي في العاصمة وارســـو وفـــي الصباح أقلتني ســـيارة إلى مدينة "بشيمشـــل" الحدودية مع أوكرانيا. تحدثت مع زميلي، الصحفي محمد البقالي،

الذي سأتسلم المهمة منه، وبصعوبة وبعد جهد حثيث تمكَّن فريقي من الحصول على غرفة لأبيت فيها في قرية كانت هي الأقرب إلى الحدود الأوكرانية، فمدينة "بشيمشـــل" تعاني أزمة فنادق وســكن، بعد أن وصل إليها في الأســـابيع القليلة الماضيـــة لاجئون أوكرانيون ومتطوعون مـــن كل أصقاع العالم، عبروا الحدود لتقديم العون للأوكرانيين في محنتهم، إضافة إلى صحفيين وكوادر وسائل إعلام مختلفة تجمعت لتنقل مجريات الأوضاع، لذلك لم يكن من اليســير الحصول علـــى غرفـــة في فندق جيد وقريب، لكنني تدبـــرت الأمر عدة أيام لإيجاد مكان أفضل.

الطريق من وارسو العاصمة إلى الحدود الأوكرانية بدا كأي ريف أوروبي؛ في فصل الشتاء لا تكاد ترى فيه سكانا في الخارج، وبدت القرى كأنها مهجورة.

اســتغرق الطريق نحو خمس ساعات.. طوال الطريق كنت أسترجع صور اللاجئيـــن الأوكرانيين التي نقلتها قنوات التلفاز والمحطات في الأيام الماضية، الصورة كانت شـــبه واضحة لكنني ككل مرة أحاول التعمق أكثر، والولوج إلى خلفيات قصص تبدو أحيانا عادية من حيث هيئتها لكن بطلها هو من يدري فقط وقائعها ويستشعر ألمها.

تداعـــت إلـــى ذاكرتي صور مـــن العراق وحروبه التي لا تـــكاد تنتهي منذ عقود، وموجات النزوح، وتداعيات الطائفية، والخلافات السياسية التي اضطرت عشرات الآلاف من الأسر إلى الفرار من ديارها.. ومشاهد وطني سوريا وحربه طوال أكثر من عشر سنوات، من تغيرات في المعادلات السياسية والخطط، إلى تغيرات ديمغرافية ممنهجة تركت كذلك آلاف الأسر في بقع جغرافية لا يمتون إليها بصلة، هي في عرفهم مناطق غربة لكنها في عرف القوى الإقليمية والدولية من متطلبات المرحلة وفق ما تم رســـمه من خرائط. وأخيرا إلى حرب روســـيا على أوكرانيا، وتطلعات التوسع التي يدفع المدنيون ضريبتها أكثر من الجميع.

صور وصور تجول بي بعيدا، قبل أن يعيدني صوت السائق وهو يقول لي: "ها قد وصلنا الفندق".

هيئة الفندق توحي بكونه منزلا ريفيا أكثر منه فندقا، فلا نوافذ توحي بوجود غرف ولا عمال استقبال، ولا حركة عند الباب.. تمعنته سريعا ثم توجهت إلى

الباب؛ فغزارة الأمطار حالت دون توقفي مدة أطول في الخارج. بمجرد دخولي شممت رائحة الطعام والورد. هدوء كبير يسيطر على المكان الذي بدا فارغا إلا من قطة رمادية كانت الكائن الوحيد الذي تحرك لاستقبالي. مشيت عبر الممر إلى طاولة الاستعلامات، وجدت هناك رجلا غفا على كرسيه وما إن ألقيت عليه التحية حتى استيقظ ليتأكد من حجزي، ثم دلني على مبنى آخر بجانب هذا البناء، وأخبرني بأن غرف المبيت هناك. إنه بناء قروي قديم، يبدو أنه تعرض للترميم مرارا؛ فهو لا يزال محافظا على جمال شكله رغم قدمه. استرحت قليلا، بعدها وصل زميلي محمد البقالي مع المصور وجلسنا وتحدثنا كثيرا عن الوضع والمعبر الذي يبعد نحو خمسين دقيقة من الفندق. كان الإرهاق باديا على محمد بعد أن قضى أكثر من أسبوعين هناك في تغطية تمتد من الصباح وحتى ساعات متأخرة من الليل، أما أنا فكنت متلهفة للوصول إلى هناك والبدء في العمل. أنهيت عدة مراسلات ثم اتفقت مع غرفة الأخبار على المباشرة باكرا من المعبر.

في الصباح الثاني تحركنا باكرا، وتحديدا الساعة السادسة صباحا باتجاه المعبر، وكانت مداخلتي الأولى من هناك في الساعة الثامنة بالتوقيت المحلي والتاسعة بتوقيت الدوحة. على الطريق كانت الثلوج تتساقط والضباب كثيفا، فلا نكاد نرى الطريق.

إذن هذا هو معبر ميديكا، وها قد وصلنا إلى النقطة التي وصل صيتها إلى جميع أرجاء العالم بين ليلة وضحاها. كان لديَّ بعض الوقت قبل مداخلتي الأولى، وعادة أول ما أقوم به عندما أصل موقع العمل هو أن أستكشفه وأتجول فيه، لأتفقد المكان والناس والأجواء، وهذا ما فعلته.. مشيت رفقة مصوري الإسباني من بداية المكان حتى البوابة الحدودية.. يوحي الموقع بأنه سوق به محلات ممتدة على طريق واحد يصل إلى البوابة. للوهلة الأولى يبدو سوقا مركزيا واستراحة اعتيادية لمسافرين بين حدود أي بلدين، وربما كان حاله سيبقى كذلك لولا الحرب التي شنتها روسيا على أوكرانيا فحولت البوابة إلى معبر إنساني لبر الأمان.. عشرات المتطوعين بمعاطف فوسفورية يقفون على طول الطريق، منهم من يحمل الطعام، وآخرون يقدمون احتياجات أخرى، وبعضهم يساعد اللاجئين بحمل حقائبهم أو بالترجمة لهم.

تحدثــت مع بعــض المتطوعين القادمين من إســبانيا وأميــركا وبريطانيا والبرتغال وحتى من باكســتان ومصر والجزائر. أدهشــني هذا المزج الإنســاني كيف جمعهم في هذه النقطة الحدودية بهدف واحد هو المساعدة. توقفت برهة عند البوابة.. ثمة عشرات المواطنين يدخلون، حاولت التحدث مع بعضهم غير أن الغالبية منهم لا تتحدث الإنجليزية فاستعنت ببعض المتطوعين المترجمين، وعلمت أن معظم الواصلين من أوكرانيا لا يريدون التحدث عن تفاصيل الحرب ودهاليزهــا، لكنهم جميعا ضد الحرب والدمار، ويرغبون في العودة القريبة إلى ديارهم.. هذه النقطة كانت مشتركة بين الجميع كما هي الحال بالنسبة لكل نازح أو لاجئ أو فار من بلاده قسرا.

على بعد عدة أمتار من البوابة خصصت منظمة اليونيســف خيمة للأمهات وأطفالهن للاستراحة. دخلت المكان وتحدثت معهن.. العدد الأكبر منهن قدمن وحدهن وتركن أزواجهن هناك يقاتلون.. فالحكومة الأوكرانية بدأت منع خروج الرجــال الذين هم في عمر الخدمة العســكرية نظرا للحاجة إليهم.. لذلك فإن حســرة أولئك الأمهات على فراق أزواجهن كانت كبيرة، ولاســيما مع وجود أطفال.. كن قلقات من قادم الأيام ومن تحملهن الوضع وحدهن.

خيمة أخرى أعدت للأســر، رجالا ونســاء وأطفالا، ولم ينس من أعدوها تخصيص زاوية لتسلية الأطفال. معظم الجالسين في تلك الخيمة حول المدفأة هم من كبار السن، كانوا فيما بدا لي الأكثر حزنا، وكأن الأقدار تتشابه في كل مكان، فالمسنون (الآباء والأجداد) هم الأكثر تمسكا وتشبثا بأرضهم، ولا أظن أنــي أبالــغ إن قلت إنهم الأكثر حبا لأرض الوطــن والديار. اتخذت لي مكانا في الخيمة يمنحني فرصة أكبر لقراءة وجوه هؤلاء المسنين والمسنات.. ملامح الحزن والحســرة المرســومة على وجوههم تعيدني مجددا إلى العراق وسوريا وفلســطين ومصر وليبيا وكل بلاد الشــرق التي عانــت ويلات الحروب وترك الديار.. هي الحسرة نفسها.. أما الأطفال ففرحتهم لا توصف، يظنون أنهم في رحلة أو نزهة خارج الديار.. مندهشــون وسعداء، ولا يفقهون من الحرب شيئا سوى السفر والترحال، وهو متعة لكل الأطفال منذ نعومة أظفارهم. فارق كبير بيــن الجد والحفيد، الأول حزين وبائس وقلــق من هذه الرحلة التي يخوضها

والثاني لا تفارقه الفرحة.

اقترب موعد مداخلتي الأولى، بدأ المصور لفّ وتغطية الكاميرا بالبلاستيك حماية لها من المطر الذي لم يهدأ طوال الليل.

قبل المداخلات بدقائق، وكما هي العادة، تم التأكد من الصورة والصوت وجاهزيـــة الأمـــور الفنية.. اتفقت مع مصوري الإســباني على أن أتحرك ليرى المشــاهد الموقع ونقــرب الصورة أكثر، وبالفعل تحركت لكن الشــبكة كانت أضعــف من المطلــوب، لكوننا على الحدود، فكانت جودة الصورة أقل.. لكن علــى كل حــال توالت المداخــلات طوال اليوم، وكان ظهوري على الشاشــة بحســب التطورات وما تستدعيه الحاجة وبالتشاور مع غرفة الأخبار. وأذكر أن المطر في ذلك ما فتئ ينهمر، وأن البرد كان قارسا لدرجة لم أتحملها، خاصة أنني ممن يحبون الصيف والشــمس. كنت أرتدي ما يكفي من الملابس، لكني أثناء بقائي في المعبر ســاعات، شــعرت بأني بحاجة إلى المزيد منها، وهذا ما بــدأت أفعلــه في الأيام التالية، ارتديت قفازين وطاقية وجوربين أو ثلاثة... كل ذلك لأبقى دافئة وأســتطيع التركيز في أفكاري ومعلوماتي؛ فالبرد بالنســبة لي يجمد كل شيء حتى الأفكار.

أثناء عملي غطيت حالات لجوء ونزوح كثيرة سواء في العراق أو سوريا، غير أن ما شــاهدته مــن لجوء الأوكرانيين إلى بولنــدا كان مختلفا. لقد كانت إجراءات وصولهم إلى بولندا يســيرة، والتعامــل الذي قوبلوا به هناك رحيما.. رأيت ذلك وقارنته بالتعامل الذي لقيه اللاجئون العراقيون والسوريون من أغلب الدول التي استجاروا بها فشعرت بغصة في الحلق وتساءلت: أليسوا جميعا بشرا؟

الســلطات البولندية ومنذ أول أيام الحرب الروســية على أوكرانيا فتحت جميع حدودها ومنافذها أمام الأوكرانيين حتى بدون جواز ســفر، واســتنفرت كل جهودهــا لاحتوائهم وتقديم كل الاحتياجات لهم بمجرد ملامســة أقدامهم أراضيهــا، وفي كثير من الأمور لم تفرق بينهم وبين مواطنيها. وقد عاينت ذلك بنفسي فوجدت أن الكثير من احتياجاتهم قد وُفِّر لهم: من طعام ولباس ودواء ومــأوى... حتى الترفيه والتســلية وجدا لهما مكانا هنا؛ فبدت فرق موســيقية

متطوعة، ومهرِّجون بملابس ملونة يترددون عليهم بين الحين والآخر للتخفيف من ألم اللجوء، حتى حيواناتهم الأليفة من كلاب وقطط تجد لها رعاية خاصة وطعامـــا، فقد تمت تهيئة مراكز لتوفير المأكل والمشـــرب لتلك الحيوانات هنا عند معبر ميديكا.. مفارقة كبيرة بين ما كنت أشـــاهده وأعاينه بالنســـبة للسوريين والعراقيين على سبيل المثال لا الحصر، وبين أساليب وطرق الاستقبال والتعامل مع اللاجئين الأوكرانيين، فبولندا نفســـها، التي تستقبل الأوكرانيين برحابة صدر ويصرّح مسؤولوها مرارًا بأنها هي بلدهم الثاني وستوفر كل ما يلزم لاستقبالهم، تُغلق أبوابها بالتنســـيق مع جارتها بيلاروســـيا؛ لا بل تبني جدارا أمام عشـــرات المهاجرين السوريين والعراقيين عند حددوها منعًا لدخولهم أراضيها.

شـــاهدنا جميعا حالات وفاة من شـــدة البرد والجوع لأطفال ونساء وحتى شباب ورجال سوريين وعراقيين وغيرهم، كان كل غايتهم الوصول إلى بر الأمان لكنهم ماتوا جوعا وبردا قبل أن يصلوا، ولم تتحرك بولندا ولا غيرها إزاء تلك المآســـي، بل استمرت بتكثيف حراستها الحدودية واتخاذ أشد الإجراءات لمنع عبور أي شخص. أليسوا مدنيين فارّين من ويلات الحرب يحق لهم الأمن كما يحـــق لغيرهـــم؟ فلِمَ لا يكون التعامل على قاعدة إنســـانية واحدة لا تفرق بين إنسان وآخر؟

بعد مرور أيام على وجودي في معبر ميديكا بدأتُ أنســـج بعض العلاقات مع الأفراد المشتغلين مع المنظمات العاملة والمتطوعين هناك، وأول سؤال كانوا يطرحونه عليَّ: من أي دولة قدمت للتغطية؟ ويأتي جوابي: من العراق؛ تحديدا من كردســـتان العراق. فترتسم أولى ملامح الدهشة، وحينما أكمل الجواب بأني من سوريا تتعمق ملامح الدهشة وتزداد، ثم يقولون باندهاش: سوريا! قادمة من العراق لنقل معاناة الأوكرانيين من الحرب الروسية؟!

ورغم المآسي التي كنت أراها فإني كنت ممتنة لعملي الصحفي الذي مكنني من أن أنقل للعالم آلام الإنسان جرَّاء تلك الحرب بقطع النظر عن جنسه أو عرقه.

كان العمل مرهقا ولاســـيما أنني كنت أتولى التغطية برفقة المصور فقط، وهو مثلي لا يتحدث أيًّا من اللغتين البولندية والأوكرانية، كذلك لم يكن لدينا أي مترجم أو منسق هناك كما هي العادة، وكان يجب علينا بذل جهود مضاعفة للحصـــول على أي معلومة أو تأكيد خبر أو التنســـيق لتصوير مكان، كان ذلك

تحديا صعبا. أذكر أنه بعد أيام من وجودنا في معبر ميديكا، أردنا رصد الواقع الإنساني في محطات القطار، لذلك توجهنا إلى محطة القطارات في مركز مدينة بشيمشل، وبدت لنا مكتظة، ولا عجب فهي تستقبل يوميا رحلات عدة من كييف ولفيــف فــي أوكرانيا، ومن هذه المحطة يتوجه بعض اللاجئين إلى دول أوربية أخرى، كألمانيا وفرنسا وغيرهما، دون أن يدخلوا المدن البولندية.

مكثنا في المحطة ساعات، فالوقت المستقطع بين مداخلة تلفزيونية وأخرى غيــر كاف للتحــرك أو العودة إلى الفندق لذلك وجب علينــا البقاء فيها، وقد لفت انتباهي رجل خمسيني يلف علم أمريكا على نفسه، فاقتربت منه لأستفسر وأتعرف على قصته.

اسمه "جون"، أمريكي، ترك زوجته وطفليه وقطع كل هذه المسافة الطويلة مــن بلاده إلى بولندا، وهو يود العبور عبــر محطة القطار إلى لفيف، والتحرك منها إلى الجبهات المتوترة، والقتال ضد روســيا.. حدثني كثيرًا عن رفضه لما تقوم به روسيا ضد أوكرانيا، وبأنه يدعم المدنيين لأنهم الضحية وليس لهم ذنب في السياســات.. وعندما علم أني ســورية قادمة من العراق أكد رفضه للحرب وانحيازه للإنسان وقضاياه أينما كان.

بعد نحو أســبوعين مــن التغطية بين معبر ميديــكا ومحطة القطار ومركز الإيــواء، اقترحنــا علــى إدارة التحرير العودة إلى العاصمة وارســو، ومما عزز المقتــرح تلك الأنباء التي تتحدث عن وصــول أكثر من مليون لاجئ أوكراني إلى وارســو، وتســببهم في ارتفاع أسعار الإيجارات وتأثيرهم السلبي في فرص العمل، وبعد أن حظي المقترح بالموافقة انطلقنا إلى هناك.

كانت مدينة المعارض ومحطة القطارات الرئيســية في وارسو أهم نقطتين يصــل إليهما اللاجئون. في المحطة لم يبد المشــهد كمــا كان عليه في الأيام الأولــى مــن بدء اللجوء من أوكرانيا إلى بولندا، فالحركة تبدو حاليا أقرب إلى الطبيعية، والنظام يبدو واضحا، على عكس الفوضى والاكتظاظ الذي كنا نشهده في الأيام الأولى من الحرب، خاصة بعد أن قامت السلطات المحلية، بالتعاون مع منظمات الإغاثة، بفتح مركز استقبال للاجئين في باحة المحطة؛ يستريحون فيه ويتناولون الطعام ريثما يتم توفير أماكن إيواء ثابتة لهم. ومما أذكره أن شعار الجزيرة كان يلفت المارة والمسافرين في المحطة، فيبدون إعجابهم بالقناة ويؤكد

بعضهـــم أنهم من متابعيهـــا، وكانت مجموعات من المارة البولنديين تقترب منا لتؤكد أمام الكاميرا دعمها للأوكرانيين ورفضها لسياسة روسيا.

قضينا في بولندا عدة أيام غطينا فيها أوضاع اللاجئين في العاصمة وراسو، ومـــا رصدته أنه رغم وصول كثير من اللاجئين الأوكرانيين إلى وارســـو وتأثير ذلك في الســـكن والعمل، فلم ألحظ ســـخطا أو رفضا من قبل المواطنين كما نعهده عادة في الدول المستضيفة للاجئين.

توجهنا مجددا إلى الحدود لكن هذه المرة إلى معبر آخر يسمى "كورجوفا"، شـــمال مدينة بشيمســـل. وهو مخصص فقط لدخول اللاجئين بسياراتهم، حيث يعبرون إلى مركز إيواء على بعد نحو خمســـة عشر كيلومترا، وهناك لاحظنا أن اللاجئين بدوا أكثر تعبا وتشاؤما مما كان عليه نظراؤهم في الأيام الأولى، وذلك لأن روسيا لا تزال تحاول الامتداد في الأراضي الأوكرانية أكثر، كما أن عمليات القتل الجماعية التي اكتشـــفت في مدينة بوتشـــا الأوكرانية بالقرب من العاصمة كييف جددت القلق والخوف في نفوس الأوكرانيين من وحشية الحرب.

أجرينـــا عـــدة مداخلات من هناك ثم رجعنا إلى ميديكا، ذلك لأن الوضع الإنســـاني كان أكثر وضوحا هناك مقارنـــة بغيره من المعابر الأخرى التي مررنا ببعضها، فمن ميديكا يدخل اللاجئون سيرا على الأقدام، وبالتالي تصبح الصور أكثر تعبيرا.

أثنـــاء وجودنا عند البوابة كنا نســـمع بين الحيـــن والآخر صافرات الإنذار تـــدوي مـــن داخل الأراضي الأوكرانية، وتحديدا من لفيـــف التي لا تبعد كثيرا عن معبر ميديكا... كانت أصوات تلك الصافرات تصل إلى مسامعنا وكنا نرى الأوكرانيين الذين يتمكنون من الفرار إلى معبر ميديكا يتنفسون الصعداء بمجرد عبورهم البوابة.

قضينا ثلاثين يوما نغطي فيها الجانب الإنســـاني للحرب الروســـية على أوكرانيـــا، أياما واصلنا فيها النهار بالليل عملا، لكن أمرا ملفتا جدا كان يخفف من كل ذاك التعب. إنه الحب. نعم الحب الذي كان الســـمة الظاهرة عند معبر ميديكا، حب الإنســـان، ومحبة تقديم المساعدة إليه دون مقابل كان ملفتا جدا. أتذكر ســـيدة مســـنّة متطوعة كانت تســـتقبلني بوجبة إفطار، وسيدة أخرى كانت تقدم لي وردة عندما تراني أنتظر موعد مداخلتي، ولا أنســـى فتاة كانت تأتيني

بفنجان قهوة أو شـــوكولاتة ســـاخنة، وأخرى تدعونـــي للجلوس والتدفئة قليلا تحت كشكها الذي تقدم فيه بعض المساعدات، وعندما يرى شخص أننا نعاني من مشـــكلة في تدبر مكان لحماية الكاميرا أو جهاز البث أثناء اشتداد الأمطار، يحاول مساعدتنا بحمل المظلة أو الحقائب... ربما لا أكون مبالغة إن قلت إن ما كان يحدث من تعاطف إنساني عند ذلك المعبر يذكرنا بما قرأناه عن المدينة الفاضلـــة.. الكل كان للكل هنا، ولقد شـــعرت وهلة أنـــي ضمن عائلة واحدة. إنَّ هذا الحس الإنســـاني المكثف كان يخفف بشـــكل جلي من إرهاقي وتعبي، حتى إنني في بعض الأيام كنت أنســـى أني قضيت نحو 16 ســـاعة في العمل المتواصـــل.. حقا لا أجد وصفا لهذا المكان أقرب من "ميديكا الفاضلة"، على غرار المدينة الفاضلة التي كانت أحد أحلام الفيلســـوف أفلاطون، والتي تخيل أن يجـــد فيها المواطن والمقيم والزائر أرقى وأكمل أنواع الخدمات بأســـلوب حضاري وبإنسانية لا تنسى.

ودعت المكان وأنا آمل توســـع هذه المدينة الفاضلة أكثر لتشـــمل العالم بأسره.

في يومي الأخير وجبت عليَّ العودة إلى وارســـو لبدء رحلة العودة إلى الديار، وكان لابد لي من جولة أخيرة وســـريعة في تلك المدينة العريقة الغنية بتاريخها وتراثها، مدينة العنقاء كما تُلقَّب، لشدة ما شهدته من حروب. المدينة الصامدة التي بنت نفسها رغم تدمير نحو 80٪ من مبانيها، مثال الصمود في وجه الحروب والدمار. وارســـو اليوم حاضنة، وبر أمان للأوكرانيين الذين يخوضون حربا لا يعرف أحد متى تنتهي ولا كيف سيحل محلها السلام مجددا.

جورناليستكا.. جورناليستكا

سلام هنداوي



هناك أوقات يمر بها الإنســان لا تعريف لها، أوقات لها بداية لكن نهايتها مفتوحة على كل الاحتمالات، في تلك اللحظات تشـعر بأن كل شيء يستقوي عليــك، الموقف الذي أنــت فيه، الذكريات التي تعصف بــك، القرارات التي تتخذها، الطريق الذي تسلكه.. كلها تمر أمام عينيك، يقلبها عقلك بسرعة الضوء. تســتذكر الأمور التي لم تجرؤ على فعلها، تذكر الكلمات التي ما زلت تحملها فــي صدرك ولم تقلها. كلها تأتي معًا؛ ثقيلة ضاغطة موجعة. تأتي لســبب غير معروف، في الوقت الذي تقف فيه رافعا يديك أمام بندقية قناص، يصرخ فيك وتصرخ فيه، فلا أنت تعرف ماذا يريد، ولا هو يعي أنك صحفي. يفقد المترجم القــدرة على الحديث، تتداخل الأصوات مع عصف الرياح فتبتلعك دوامة.. لا تعرف حينها إلا الشهادتين والسبابة... يتراءى إليك وجه أمك.. الرعب المسيطر على الفريق المصاحب لك.. من هم؟ روس أم أوكرانيون؟ هل لا تزال الكاميرا تسجل لحظاتنا الأخيرة؟ مشاهد مؤثرة احتفرت عميقا في ذاكرتنا، وأسئلة حادة انتصبت متجهمة في حنايا أذهاننا.

كان ذلــك جنوب إقليم خاركيف، في أول يوم من أيام شــهر رمضان (2 أبريل/ نيسان 2022)، كان يوما أطلَّت فيه الشمس بخجل لتداعب أشعتها غيوم رمادية عملاقة، وكان الجو أقل برودة مما عهدناه على مدار أســابيع في مدينة تفقد فيها الإحســاس بأطرافك، وتصاب يداك بلسع البرد، وتتشقق شفاهك من زمهريره. كانت وجهتنا محيط مدينة إيزيوم التي تستعر بها المعارك بين القوات الأوكرانيــة والروســية. في ذلــك الوقت كانت المدينة تمثل نقطة اســتراتيجية لكلا الطرفين. إن أطبق الروس سيطرتهم عليها فهذا يعني حصارا كاملا لإقليم دونباس ومحاصرة القوات الأوكرانية هناك ومن ثمَّ المزيد من الضغط على مدينة خاركيف.

على مدار أســابيع كنا نحاول الوصول إلى محيط المدينة ويمنعنا الجيش الأوكراني، بعد محاولات عديدة سمح الجيش لنا بالوصول إلى محيط المدينة على أن يرافقنا جندي متطوع؛ فالطريق الرئيســي أصبح تحت ســيطرة القوات الروسية.

كان رجلا قد تجاوز الخمسين، لم يترك أيّ مساحة لوشم إضافي على ذراعيه وعنقه. كنا ستة أشخاص في الحافلة الصغيرة: السائق وبجانبه المصور، وفي المقعد المتوسط أنا والمنتج، وفي المقعد الخلفي الجندي المتطوع والمترجم.. كنا نسير في طرق وعرة ومعزولة بين مساحات شاسعة من المزارع والبيوت الريفية المتواضعة على مدار أربع ساعات متواصلة.. بين الحين والآخر نشاهد آليات عسكرية معطوبة وصناديق ذخيرة خضراء مترامية في الوحل.. قابلنا قلة من السكان المحليين كانوا يرمقوننا باستغراب لكن ذلك لم يلفت انتباهنا. في ذلك الوقت كنا نفكر في الوصول وفي توثيق ما يقابلنا على الطريق. توقفنا مرة وقررنا ألا نقترب من الآليات العسكرية المعطوبة لتصويرها خوفا من الألغام التي أصبح نصبها مألوفا خلف القوات المنسحبة.

ثم دخلنا طريقا كانت آثار جنازير الدبابات واضحة عليه، أخبرنا الجندي بأن في نهايته جسرا قصفته القوات الأوكرانية لقطع الطريق على القوات الروسية المتقدمة نحو خاركيف. قررنا الاقتراب منه قبل التوجه إلى أقرب قرية لمدينة إزيوم. مررنا على ثلاث دبابات محترقة على جانب الطريق ثم انكشف أمامنا الجسر المدمر الذي يمر من أسفله نهر جارٍ بعرض خمسة أمتار على الأقل. لا يعرف المترجم للنهر اسما لكثرة الأنهار الداخلية في أوكرانيا، كان المشهد يستحق تسجيل وقفة أمام الكاميرا.

همَّ المنتج والمصور والسائق والمترجم والجندي المرافق بالسير اتجاه الجسر، وبقيت أنا في السيارة أستجمع أفكاري لصياغة الوقفة أمام الكاميرا، ثم فجأة سمعت صوت إطلاق نار.. نظرت باتجاه الفريق فوجدتهم ممددين على الأرض خلف ساتر إسمنتي، أدركت فورا أننا مكشوفون لإطلاق نار من مكان ما، حملت هاتفي وبدأت تسجيل ما يحصل ثم فتحت باب السيارة وانزلقت أسفلها بحيث أوثق ما يحدث للفريق وأحمي نفسي.. كان الكل يصرخ بالعربية والأوكرانية والإنجليزية، لكن الرياح القوية حالت دون فهمي ما يُقال. أدركت بأن إطلاق النار قادم من خلف الجسر بإشارة من المنتج، كان الفريق يخشى أن يتحرك من خلف الساتر الإسمنتي فيطلق القناص النار عليه مباشرة.

في ذلك الوقت، وأنا ممددة على الأرض، وقد التصق وجهي بها، مرَّ

وجهها الأبيض أمامي، هادئة باسـمة دامعة العينين.. ما الذي جاء بي إلى هنا؟ كيف تركتها على سرير المستشفى وأتيت إلى هنا لتغطية الحرب الروسية على أوكرانيا؟ أمي هل أبكيك وأنتِ في أضعف أيامك؟

كنت في طريقي إلى أوكرانيا عندما أبلغتني شـقيقتي بأن والدتي ستخضع لعملية جراحية لاسـتئصال ورم خبيث في معدتها. قررت العودة إلى فلسـطين. لكن أمي طلبت مني مواصلة المهمة فهي، منذ أن كنت أعمل في تلفزيون محلي بفلسطين لا مشاهدين كثرا له، لم تفوت لي تقريرا. على مدار سنوات من العمل كانـت جمهوري الأول، بل عندما كنت أنشـغل بالمتابعات الإخبارية وتفوتني الشاشة كنت أسألها هل بُثَّ تقريري؟ فتجيبني بعدد المرات التي بُث بها، وتذكر توقيت النشرات التي بُث خلالها. كانت العين الفاحصة لعملي، عقب كل تقرير ترسـل إليَّ تقييمها على هاتفي: "كنتِ موفقة يا سلام"، "هذه لم تعجبني، كنتِ مشتتة"، "كانت المعلومات بحاجة إلى توضيح أكثر".

شـاهدت السائق ينهض رافعا يديه ملوحا ببطاقة الصحافة رغم أنه يرتدي درعا واقيا من الرصاص مكتوب عليه بخط واضح صحافة، كان يصرخ بالروسية "جورناليسـتكا.. جورناليسـتكا" أي "صحافة"، مشيرا باتجاه باقي أعضاء الفريق الذين وقفوا الواحد تلو الآخر رافعين أيديهم باتجاه القناص المتمركز في الجهة الأخرى ويفصلنا عنه النهر.

هل أبقى مختبئة أم أنهض؟ كنت أجري حسـاباتي للموقف بالطريقة التي تضمن سـلامتنا؟ كان السائق يشـرح لكن الرياح وجريان ماء النهر كانت تقف عائقـا بيننا وبين الجنـود في الجهة المقابلة، فيعاد الـكلام ذاته مرات ومرات وبنبرات مختلفة. قررت النهوض لأتجه نحو الجسر رافعة يديّ وأصرخ بالكلمة الأوكرانية الوحيدة التي حفظتها (جورناليسـتا) ربما صوت فتاة بالمكان يخفف من احتقان الموقف. إذا أطلت الاختباء واكتشـفوا لاحقا وجودي فهذا سـيزيد الأمور سوءا أو ربما يعرضني لإطلاق نار لاحقا.

وقفـت رافعة يديّ في الهواء سـرت وأنا أصـرخ بالأوكرانية والإنجليزية صحافـة.. صحافـة. أصبح المشـهد واضحا أمامي ثلاث خـوذ تتحرك بحذر خلف ساتر إسمنتي وضعت فوقه أكياس رملية ولا شيء أوضح من فوهة بندقية

القناص.. ما إن استوعبت المشهد حتى انطلقت رصاصة أخرى انبطحنا أرضا.. مـا الذي حدث؟ نحن مكشـوفون أمامهم بكل وضـوح هل أصابت الرصاصة أحدنا؟

هرب الجندي المرافق لنا؟ اختفى بين الحشائش والوحل؟

جن جنون الجنود عند الساتر.. كلام غير مفهوم وصراخ. سألت المترجم بانفعـال: لماذا هـرب؟ تلعثم وأجاب "لأن من هم أمامنا قوات روسـية.. هو سـيكون أسـيرا أما نحن فصحفيون وسنعامل بشـكل مختلف". ظننت أنني لم أفهم الترجمة فأعدت السؤال للمنتج: لماذا هرب؟

ثم كرر الإجابة "يبدو أن الجنود الواقفين أمامنا من القوات الروسية". قلت لـه: لكنهم يرتدون ملابس الجيـش الأوكراني، وقد لمحت ربطات صفرا على أذرعهم. فقال: يبدو أنها قوة روسية متخفية، لأنهم يتحدثون الأوكرانية بصعوبة، ويجيدون الروسية.

طلب الجنود أن نتجه إلى الجانب الشـمالي للجسـر.. تحركنا الواحد تلو الآخـر وأصبحت الأذرع منهكة وهي معلقة بالهواء.. أصبحنا مكشـوفين تماما وملاصقيـن لضفة النهر، ثم أمرنـا الجنود بأن نخفض أيدينا وأن نبقى متفرقين بعضنا عن بعض. عمَّ الصمت المكان. سـحبت الأفكار المتزاحمة في رؤوسنا كل واحـد منا إلى عالمه الخاص. تلك الأفـكار التي تأتي بتفاصيل لم تلتفت إليها من قبل.

كنت أحاول تخيل مشـهد ما الذي سيحدث بعد ذلك، لن نبقى مصلوبين بالوحل إلى ما لا نهاية، هل سيرسلون قوة تأتي من مكان ما لتنقلنا إلى الجهة المقابلة؟ هل سيحضرون سيارات لنقلنا إلى مركز اعتقال؟ هل عندما يسألوني: من أي بلاد أنا قادمة، سـيعرفون فلسـطين؟ أم مثل كثرٍ غيرهم قابلتهم سـابقا تتملكهم الدهشة حين سماع اسم وطني؟

خلال السنوات التي كبرت فيها في فلسطين وعلى الحواجز العسكرية، وفي زيارات المعتقل حيث يسجن الاحتلال شقيقيّ، وفي يومياتنا المنغَّصة بالبطش، اصطدمت مرات ومرات بجنود ومسـتوطنين قادمين من أوكرانيا. وأثناء عبورنا من الحدود البولندية باتجاه أوكرانيا ومشاهدة الأوكرانيين بأمتعة قليلة يجتازون

الحدود بكل آدمية بعيدا عن مشاهد اللجوء التي شاهدناها في دول عربية عديدة، كنت أتساءل: إلى أين يذهبون؟ هل هم في طريقهم إلى بلادي كمستوطنين؟ هل سيعيشون في بيت سقفه من القرميد الأحمر، ضمن تجمع استيطاني جميل، تتوفر فيه كل الخدمات، مُطلّ على بيوت الفلسطينيين المحرومين من البناء؟ أم سيشاهدون من بعيد مخيمات اللاجئين؟ هل سيزورون القدس ويسيرون في أزقتها وأنا التي حُرمت من عبق شوارعها منذ سنوات طوال رغم أنها تبعد ثلاثين دقيقة عن بيتي؟ هل سيستلطفون العيش على أراضٍ مسلوبة من أصحابها الأصليين الذين أضحوا لاجئين متهمين بأنهم باعوا أرضهم في نظر تيار تطبيعي صاعد يُروِّجُ بأن الفلسطيني باع وخان؟

قبل أيام من حادثة الجسر، كنا قد صورنا تقريرا عن إخلاء حديقة الحيوان في مدينة خاركيف، كانت مهمة محفوفة بالمخاطر، فالحديقة أصبحت تقع على خطوط النار وعلقت الحيوانات هناك، وفي أول محاولة لإيصال الطعام إليها مع بداية الحرب قُتل سائق الحافلة. ذهبنا مع المربين إلى الحديقة.. كنا نقطع الحواجز وعلى جانبي الطريق غابات خضراء ساحرة.

كانت تتم عملية إجلاء الحيوانات بسرعة على وقع إطلاق القصف المتبادل بين الطرفين. وفي لحظات انتظار أن يأخذ التخدير مفعوله لتهدئة الحيوانات المفترسة المذعورة جاءني هذا السؤال من أحد المربين بالإنجليزية: من أين أنتِ؟ أجبته من فلسطين، هل تعرف فلسطين؟ ابتسم وقال لقد زرت أورشليم. باغته فورا: أنت تقصد القدس جوروساليم. فهز رأسه قائلا: نعم نعم. أردت التأكيد. فقلت له ونحن ننتظر أن تتخدر اللبؤة، لكنني فلسطينية، أنا لست إسرائيلية. ابتسم وقال: نعم نعم.

لم يكن الموقف يسمح بأي نقاشات لكنني تأملته جيدا، كان يشبه وجوه مئات المستوطنين الذين شاهدتهم من قبل وهم يعربدون في الخليل ويقطعون الطرق ويقتلعون الأشجار في نابلس.

لطالما حملت وطني معي مذ غادرت فلسطين، وأدركت أن الناس لا يعرفون عن حياتنا في ظل الاحتلال كثيرا، فكنت أقص عليهم حكايات من يومياتنا، كلٌّ يقاوم المحتل على طريقته، وهذه طريقتي؛ أن أحمل قصة وطني

أينما ذهبت.

أتتنـــي مربية ونحن نهمّ بمغادرة الحديقـــة فذرفت الكثير من الدموع على الحيوانات التي نفقت بســـبب القصف. طلبـــتُ من المترجم أن يقترب ثم قال لي: تريد أن تسألك؛ كيف هو شعورك وأنتِ ترين الحيوانات مقتولة والحديقة مدمرة؟ قلت له أخبرها بأن الحرب محزنة أينما حلت.

كنت أودّ أن أروي لها ما حلَّ بالعراق واليمن وسوريا... كنت أودّ أن أسرد على مســـامعها بعضا مما عايشـــت تفاصيله وأنا طفلة أثناء الاجتياح الإسرائيلي للمدن الفلسطينية في الانتفاضة الثانية.

بدأ المشـــهد عند ضفة النهر يتغير؛ نتبادل الحديث فيما بيننا ونحلل ما إذا كانت القوة التي تحتجزنا روسية أم أوكرانية؟ كل واحد منا يرسم سيناريو وفق تحليله الخاص. ثم قرر الســـائق أن يســـأل الجنود بشكل مباشر: هل هم روس أم أوكرانيون؟ لكن السؤال أعجب الجنود لدرجة القهقهة.. ثم جاء رد السؤال إلينا: هل أنتم روس أم أوكرانيون؟ وبقينا ســـاعات أخرى معلقين لا نعرف من هم على وجه الدقة.

طال الانتظار.. كان عقلي مثل خلاط يأتي بالأفكار من كل مكان، الاعتقال، الاغتصاب، التعذيب، إلقاء جثثنا في النهر... شـــيء واحد كان ينتشلني من كل الســـيناريوهات المأساوية في الحرب؛ يقين في أعماقي يهتف بي قائلا: إنَّ الله لن يخذلنا ونحن صيام، ولن يكسر أمي وهي على سرير المستشفى تقاوم ذلك الخبيث.

أدركنا أن أمرا ما يدور خلفنا بعد أن شاهدنا الجنود يتبادلون المنظار لمراقبة شيء لا نراه. هل نحن على خط إطلاق نار؟ هل سيندلع اشتباك ونعلق هنا دون أن نتبين من هم القادمون من الخلف ومن هم أمامنا؟

وضعـــت الخطة في ذهني إذا أطلقت النيران من الجهة الخلفية.. ســـوف أركض باتجاه أســـفل الجسر المدمر، فقد أصبحنا معروفين للجنود المتحصنين وراء النهر، أما القادمون من الخلف فنحن بالنسبة إليهم أهداف مجهولة.

مرت دقائق ببطء ثم شاهدنا سيارات عسكرية تقف عند الجنود المتمركزين أمامنا وترجلَّ منها مجموعة تحدثوا للجنود ثم بدؤوا ينتشرون أمامنا بين الحشائش

مصوبين بنادقهم باتجاهنا.. طلبوا أن نقف.. أصبح المشـــهد أكثر وضوحا.. ثم لمحت بينهم ضابطا يحمل مسبحة.. هل هم من القوات الشيشانية التي تقاتل إلى جانب القوات الروسية؟ نسأل المترجم الذي فقد صوته عن ماذا يتحدثون، فيجيب بتلعثم شديد: "يتحدثون الروسية". فقد الرجل الذي يتحدث ثلاث لغات قدرتـــه على الكلام. أصبحنا نجتر الكلام منـــه اجترارا، يجيب باقتضاب ودون وضوح فيزيد المشهد ضبابية.

بقيت كل أمتعتنا في السيارة، ترى هل نفدت بطاريات الكاميرا التي تركناها تسجل ما حدث أعلى الجسر؟ نعم بكل تأكيد نفدت. قُطع الإنترنت عند منتصف الطريق؛ أي أن آخر ظهور على أجهزة التعقب الخاصة بنا كان على بعد ساعتين، وهو ما ســيجعل مهمة تحديد انقطاع الاتصال بنا شديدة التعقيد بالنسبة للفريق الـــذي يتابع ســـلامتنا في الدوحة، ثم رأينا الجنود مـــن خلفنا يتحدثون للجنود علـــى الضفـــة الأخرى، ويحملون بأيديهم ما لدينا مـــن مقتنيات وكاميرات إلى قرب النهر، وظهر رجل خمسيني هزيل يرتدي ملابس مدنية يحمل قاربا مطاطيا وحبالا. في تلك اللحظة علمنا أنهم سينقلوننا إلى الجهة المقابلة.

طلب الضابط الذي يحمل المســبحة مـــن المنتج أن يكون أول المنتقلين إلى الجهة المقابلة، عليه أن يجدف إلى الجهة المقابلة. كان جريان النهر قويا، والتربة هشّة عند ضفة النهر، والأقدام تنغرس بها وتعلق بسرعة.

ألقى الرجل الريفي بحجر مربوط بطرف الحبل إلى الجهة المقابلة، انتقل المنتج إلى الضفة المقابلة ثم طلب الضابط أن أنتقل أنا والمصور، وبعد ثلاث محاولات فشلنا في الانتقال، فنحن لا نمتلك مهارات التجديف في نهر جارف كهذا، فضلا عن أن المياه كانت تملأ القارب المطاطي بسبب عدم توازننا.

عدنا أدراجنا إلى الضفة، وصعد الرجل الريفي إلى القارب وحاول إيصالي إلى الجهة المقابلة، لكن المهمة بدت مستحيلة مع الدرع الواقي للرصاص الذي أرتديه والذي جعل وزني أثقل وحركتي أصعب.

دائما الأفكار الغريبة تزورنا في التوقيت الخطأ، وبدل أن أفكر في اللحظة التي أعيشـــها خطرت ببالي فكرة: ماذا لو ســـقطت في النهر؟ صحيح أنني أجيد السباحة لكن مع الدرع الذي يزن نحو 12 كيلوغراما يبدو الأمر شبه مستحيل،

مؤكد أنه سيسحبني إلى القاع.

ثم فجأة بدأت أضحك.. أنظر إلى الفريق بين الضفتين ونضحك ويضحك الجنود.. وأنا والرجل الريفي عالقان وسـط النهر؛ يحاول بجسـده الضعيف أن يسيطر على القارب، والجنود الذين يمسكون بالحبل يحاولون سحبنا باتجاههم.

ما إن نجحنا في الوصول حتى قالها المنتج: "هؤلاء قوات أوكرانية لكنهم يظنون بأننا متسـللون روس". تحقق الجنود مـن بطاقات الصحافة الأوكرانية، وتبيَّن أننا كنا قادمين من مناطق سـيطرة القوات الروسـية، فالخارطة تتغير كل يوم والجندي المرافق لنا لم يكن على علم بذلك. وعليه قرر الضابط المسؤول ألا نعود بسـيارتنا إلى مدينة خاركيف. سيتم نقلنا بسيارة زراعية إلى جهة آمنة، وسيتكفل الجيش بنقل سيارتنا من المنطقة إلى منطقة أخرى.

كنا نجلس في شـاحنة مخصصة لنقل أشتال الورد لا مقاعد بها. نتدحرج يمينا وشمالا ونحاول أن نتشبث. نتوقف عند حواجز على الطريق، يفتح الجنود الباب يتأملون حالنا ونحن الذين ما زلنا صياما لم تبتل عروقنا بشربة ماء، مرهقين والبرد ينخر عظامنا، وكل واحد منا غارق في صمته.

بعد سـاعات وصلنا إلى مدينة لوزوفـا، وظننا أن الحكاية قد انتهت، وإذ بالشـرطة والمخابرات في انتظارنا لإجراء تحقيق فيما حدث. سـاعات أخرى مـن الإجراءات كانت ثقيلة لكنني كنت فقط أريد أي إشـارة اتصال لأتأكد أن أمـي بخيـر. لأقول لإخوتي إنني على قيد الحياة، فأنا في هذا اليوم لم أتواصل معهم، ولم أظهر على الشاشة، وأمي، رغم مرضها، كانت تتابعني.

في الطريق إلى مقر إقامتنا، ونحن نعبر طرقا غارقة في الظلام ونقف على حاجز تلو الآخر، كنت أتساءل عن كل الأضداد التي تملأ حياتي، ويذكرني بها دائما الأشـخاص الداعمون والمنتقدون لعملي: يا سـلام ليس لك من اسمك نصيـب. يا سـلام ما الذي يدفعـك لهذا العمل. اعذريني يا سـلام يبدو أنك الوحيدة التي توافق على الذهاب فأنتِ مندفعة.

عندمـا قـررت أن أبقى في خاركيف مع الفريق كنـت أتلقى ألف تحذير ونصيحة بأن أبتعد، وأنني لست مجبرة.. لكن ثمة صوت خفي ما برحت أسمع صداه يتردد في نفسي، إنه مرشدي، صوت اطمئنان بأن كلَّ شيءٍ مقدَّر ومكتوب.

وفي مساحة الاطمئنان هذه لم أكترث لأي صوت كان يحاول أن يسحبني إلى الخلف. بل على العكس؛ كنت كأني أشعر بيد تربت على كتفي وصوت يخبرني بأني أبلي بلاء حسنا. يكتسب الكلام قيمته حينما يأتي في توقيته المناسب.

بعد أيام وجبت علَّي العودة من خاركيف إلى فلسـطين.. عندما كنا ننتظر قـدوم القطار كنت أتمعـن خاركيف؛ تلك المدينة الجميلة حتى وهي في حالة حرب. كنت أتساءل: ترى كيف كان شكلك يا خاركيف والحياة تدب فيك قبل أن تحولك الحرب إلى مدينة أشـباح؟ كم من مدينة عربية حولتها الحرب إلى ركام ولم يهتز للغرب جفن؟ كنت على مدار شـهر من العمل لا تفارقني فكرة المقارنة بين وجعنا ووجعهم، بين حربهم وحروبنا، بين ما نشاهده في فلسطين وسوريا واليمن والعراق وما نشاهده في أوكرانيا... كل الحروب بشعة بلا شك، والوجع الإنساني واحد دون ريب، لكن الأكثر بشاعة أن يظن قساة القلوب أن الإحساس بالألم يتغير وفق لون العيون والبشرة.

شـاكرة لكل تلك المناطق التي منحتني فرصة أن أقوم بما أحب؛ "مراسلة ميدانية"، في ميدان ظل وقتا غير قصير لا يتسع للجنس اللطيف.

من أقصى الغرب.. إلى الحرب

حسَّان مسعود



قبل أن يبدأ تاريخ الرابع والعشــرين من فبراير/ شــباط 2022 في أوكرانيا، وعند قرابة الحادية عشــرة ليلًا من الثالث والعشــرين من ذاك الشهر، بعيدًا في البرازيل، مع الأخذ بالحسبان فارق التوقيت، كنت أجلس أشاهد نشرة الأخبار ففوجئت كغيري بإعلان الرئيس الروســي فلاديمير بوتين عمليةً عســكريةً في أوكرانيا. تسمرت أمام الشاشة وبدأت أتابع التفاصيل وبيدي هاتفي أعيد تجميع ما توفر من معلوماتٍ كنا نمر عليها مرورا خلال أيام مضت عن تاريخ الصراع بين روسيا وأوكرانيا، تفاصيل لم نكن نلتفت إليها كثيًرا حينما كانت التحذيرات تُطلق من كبار المسؤولين الغربيين عن حربٍ محتملةٍ في ذاك البلد الجار لروسيا، غير المعروف كثيرا بالنسبة لنا.

ثلاثة أيام لم أطفئ فيها شاشة التلفزيون في منزلي وصدى صوت التغطية المســتمرة علًى شاشة الجزيرة مســتمرٌّ على مدار الساعة، شأني في ذلك شأن الملايين الذين كانوا كذلك يتابعون حدثًا سريعًا ما تحوّل إلى الأهم على مستوى العالمٍ، لما له من أبعاد وتأثيراتٍ تطال مختلف المجالات السياســية والأمنية، وصولًا إلى مائدة كلّ بيتٍ ولا ســيما في الشــرق الأوسط وإفريقيا، لاعتمادهم على الحبوب الأوكرانية وكذلك في أوروبا لاعتمادها على الغاز الروسي.

فــي اليــوم الرابع، وبعدما كنت أتابع عمــل زملائي وبطولاتهم التي كنت أغبطهم عليها وأرســل إليهم دعواتي ورســائل الدعم في ظروفٍ غير معهودة ومشهدٍ غامض.

تلقيــت اتصالًا مــن مدير إدارة التخطيط والمكاتب الخارجية في الجزيرة، رائد فقيه، يسألني فيه عن استعدادي للتوجه إلى أوكرانيا للمشاركة في التغطية!

لا أخفيكــم أننــي كنت أنتظر طلبًا كهذا منذ اللحظة الأولى للحرب؛ فكلّ صحفيّ شــغوف بـ"مهنة المخاطر" يتوق لتغطية أحداثٍ كبرى كهذه دون إغفال أهمية الاستعداد الدائم ومراعاةِ إجراءات الأمن والسلامة.

بدون أيّ تردد أبديت اســتعدادي للسفر على أول طائرةٍ متاحة، شاكرًا ثقةً كبيرةً وأمانة عظيمةً حُمّلتها.

الوجهــة الأولــى للمهمة كانت مدينة "لفيف" الحدوديــة مع بولندا غربي

أوكرانيـــا، توجهت مع مصور برازيلي صديق إلى بولندا، عبر محطات عدة، في رحلةٍ اســتغرقت 21 ســاعة، قضيت أغلبها في التخطيط لما يمكنني تنفيذه من أفــكار، خاصة فيما يتعلق بتغطية واقــع الحدود واللاجئين عبرها، ثم النازحين في لفيفٍ وقصصهم التي كنت أصلًا أريد سماع الكثير عنها واكتشاف تفاصيل حياة شعبٍ جديدٍ يتعرض لمأساة هجرة جديدة في هذا العصر.. فأنا لاجئٌ ابن لاجئ.. أزعم أنّي أعرف التهجير واللجوء جيدًا!!

القصّة رقم صفر!

أثناء خروجنا من باب الطائرة ووصولنا إلى صالة تسلّم الحقائب، تعرفت مع المصور على سيدةٍ أوكرانيّةٍ تبدو عليها ملامح التوتر والقلق تسأل عن طريقة للوصول إلى مدينة لفيف. تساءلنا.. لفيف؟! تلك المدينة التي كان الجميع حينها يخرجــون عبرها إلى خارج أوكرانيــا، ولا يدخلها إلا أمثالنا من الصحفيين أو المتطوعين... أن أســمع سيدةً تريد دخول "بلد الحرب" الذي تخرج منه آلاف الســيدات على مدار الســاعة أمرٌ يســتدعي الاهتمام.. وهو ما جرى، تحدثنا إليها، وعرَّفتها بنفســي واستأذنت في أن أســمع قصتها، لأُدهش من تفاصيلها! إنها "ماريا"، أمٌّ كانت في مهمةِ عملٍ في سويسرا قبل الحرب، تركت طفلتها مع والدها في كييف، إلا أن الحرب اندلعت واشتد القصف على المدينة، وأصبح لزاما إخراج الفتاة بأســرع وقت، لكن والدها لا يســتطيع المغادرة نظرا لقوانين الحرب التي تلزم كل الرجال البقاء في البلد وتوجّه من يعرف القتال منهم -كما فــي حالة زوجها- إلى الجبهات، مما اضطرّ "ماريا" إلى العودة ســريعًا لأخذ ابنتها من لفيف وإخراجها إلى مكانٍ أكثر أمنًا!

لــم أتــردد في أن أقترح عليهــا مرافقتنا إلى هناك حيــث وافقت وجهتها وجهتنــا.. وإعــداد تقرير عــن القصّة.. أملًا في أن يكون لها نهاية ســعيدة في ظل تلك الظروف المعقّدة.. وافقت الســيدة، وبدأنا التصوير من داخل المطار، ثــم انطلقنا إلى الحدود، وبدأت أســمع منهــا ما تعرفه من الداخل عن الحرب وظــروف أهلهــا ومعارفها في أوكرانيا، وبعد صعوباتٍ كثيرة ومرورنا بمحطات اســتقبال اللاجئيــن ورؤيــة الآلاف منهم في ظروفٍ شــديدة الصعوبة، بمراكز الإيواء، مشاهد ذكرتني بمثيلاتها في عالمنا العربي الذي عانى أهله في كثيرٍ من

البلدان آلام التهجير.

بعد أن قطعنا الحدود سـيرًا على الأقدام عكس الاتجاه في رحلةٍ شـاقة استغرقت 12 ساعة، وصلنا إلى لفيف، وقبل أن نضع حقائبنا، توجهنا مع ماريا لإتمـام اللقـاء الموعود، وبالفعل تمكنت من احتضـان طفلتها في لحظةٍ مليئةٍ بالمشاعر الإنسانية بعيدًا عن كل تفاصيل السياسة، لحظة وثقتها عدستنا وقلوبنا! طوت ماريا صفحةً من سـجل صعوبات هذه الحرب، وفتحت صفحةً جديدة، بتوجهها مجددًا نحو الحدود لإخراج ابنتها سـريعًا من أوكرانيا، وختمنا تقريرنا بتوجه الوالد إلى كييف للمشاركة في معارك الحرب التي ما زالت في بدايتها.. وبقينا نحن نغطي بقيّة فصولها!

في لفيف..

على مدار السـاعة قمنا في المدينة، التـي أصبحت قبلة النازحين الفارين من المعارك المشـتعلة في محيط العاصمة ومدن الشـرق والجنوب الأوكراني، بتغطيـة أخبار أولئك النازحين ورواية قصصهم المختلفة بتفاصيلها الكثيرة التي لا يتسع المقام للحديث عنها جميعا.. عشرات الآلاف كانوا يتدفقون يوميا إلى محطة القطار جلّهم أطفالٌ ونساء. هناك صعوباتٌ في استقبالهم وتأمين مساكن لهم وتقديم المسـاعدات اللازمة واجهتها السـلطات في الأيام الأولى، وهناك قرب المحطة قضينا معظم أوقاتنا، إلى أن قررنا، بعدما رأينا من قصص كثيرة، نقل التجربة للمشـاهد بواقعية! وكيف يكون ذلك إن لم ننقل له الصورة ليس مـن خارج محطة القطار بل من داخله وفـي مقصوراته الممتلئة! فقررنا قضاء يوم كاملٍ داخل المحطة نستعرض جانبا من قصص الواصلين إليها، ثم نستقل القطّار معً إحدى العائلات القادمة من بعيد، ونمضي معها في رحلتها إلى خارج الحدود لتصل إلى برّ الأمان بالنسبة لها!

نعم.. إلى تلك الحدود مجددًا بعدما وصلنا إليها قبل أيام قليلةٍ فقط، فهذا ما أردناه تماما رغم ما يحف هذه الرحلة من مشـقة ومخاطر. عشـر سـاعات اسـتغرقتها رحلةٌ كانت تحتاج إلى سـاعتين فقط في الحد الأقصى للعبور من لفيف إلى "بشيمشل" في بولندا، رصدنا فيها واقع اللاجئين في القطار وقصصهم التي حملوها معهم من المناطق السـاخنة، وختمنا جوازاتنا معهم على بوابات

المغـادرة. أتممنا مهمتنا وأنجزنا تقريرًا لن أنسـاه.. وعدنـا أدراجنا إلى غربي أوكرانيا من جديد!

ذاك الغرب الذي بدأت تتغير ملامحه، حيث لم يعد بمنأى عن الصواريخ والقصف المباشر، لنبدأ مرحلةً جديدةً من المهمة التي كان مقررًا لها أن تكون عشرة أيام فقط، إذ طُلب منّي البقاء حينها حتى إشعارٍ آخر!

بدأناً نسـتيقظ على أصوات الضربات الصاروخيّة ودخان الانفجارات في لفيف ومحيطها، وحيث لا يتسع المقام للحديث عن كل الاستهدافات رغم أن لكلٍّ منها تفاصيل كثيرة، فإنني سأذكر قصتين فارقتين في تلك التجربة!

كنـت حريصًا علـى الوصول أولًا إلى مواقع القصف ليس للسـبق فقط، على أهميته، بل لنقل الحدث كما هو على أرض الواقع وتقديم ما أستطيع من إجاباتٍ لحربٍ مليئةٍ بعلامات الاسـتفهام، وهـو ما جرى بالفعَل، حينما دوَّى انفجارٌ فجر الـ13 من مارس/آذار في منطقة لفيف وكان أول استهدافٍ لها في موقعٍ شديد الحساسية، علمت حينها أنه قاعدة عسكرية قرب الحدود مع بولندا، سـريعًا توجهت مع الفريق الشجاع المرافق لي إلى المكان الذي كان يعتبر من الأماكن الأكثر حساسيةً، ورصدت واقعه وآثار الدخان تتصاعد من جوانب منه، واستأذنت الجنود الذين وافقوا على مضض في البث مباشرةً من المكان ونقل الواقع، كنا الوحيدين في المكان فترةً طويلة، ننقل مشـاهداتنا ونشـرح حساسية الموقع المسـتهدف وأبعاده، وكان في تلك الفترةِ حديثٌ على مسـتوى العالم متعلق بمشـاركة المتطوعين الأجانب في تلك الحرب، دون أدلةٍ أو معلوماتٍ كثيـرةٍ بين يـدي الصحفيين، وقد فوجئت بطلب أحـد الضباط إيقاف التصوير مؤقتا، ثم مرور مجموعةٍ من الشـبان بزيٍّ عسـكريٍّ وعلى أكتافهم أعلامُ دولٍ أجنبيـةٍ مختلفـة، وبعد عودتي إلى الهواء، ذكرت ما رأيت بدقة لنحقق السـبق ونكون أول من ينقل خبرًا كهذا على الهواء، وقد شـكّل في نظرِ كثيرين لحظةً من اللحظات الفارقة في هذه الحرب!

أما الحدث الثاني الذي لا تُمحَى تفاصيله من ذاكرتي، فقد كان في الـ26 مـن مارس/آذار 2022، حينما كنت أجلس مع السـائق فـي أحد مباني لفيف العاليـة، لتدوي صافرات الإنذار ويُطلب منا المغادرة بسـبب قصفٍ صاروخيٍّ

محتمــل، وبالفعــل رأيت دخانه خلف جبــل مقابل المكان الــذي أوجد فيه؛ مما يعني اســتهداف منطقة قريبةٍ من وســط المدينة لأول مرة! ومن دون تأخر، طلبت من الســائق التوجه لأخذ المصور والمعدات والتوجه نحو الدخان، أمّا أنا فهرعت باتجاه دخان الانفجار وليس معي سوى هاتفي الشخصي، ووصلت إلى أســفل الجبل؛ حيث لم يكن أمامي طريق للوصول إلى الدخان ســوى أن أصعد وأقطعه ركضا... كنت أتوقف ثوانيَ ألتقط فيها أنفاسي وأرسل معلوماتٍ وأخبــارًا إلــى الزملاء في القناة وبعض اللقطات من بعيد من هاتفي ثم أواصل ملاحقــة الدخــان... أصعد تلالاً وأهبط من أخرى، وأقترب أكثر فأكثر، إلى أن قطعت كيلومترات بســرعة قياسية، فوجدت موقع الانفجار يشتعل بشكل هائل حيث كانت خزانات الوقود هي المســتهدفة، فأرســلت موقعي للفريق، وطلبت من المصور المتفاني (مارسيلو دي أوليفيرا) الحضور، لكنني لم أنتظر! اقترحت على الزملاء أن نظهر على الهواء عبر الهاتف، ونركّز الصورة على الحدث الكبير حينهــا، وأعلق بالصوت فقط.. وهكــذا كان! ليلحق بي المصور ونقدم "أقوى صورةٍ للحدث" كما قال كثيرٌ من الأصدقاء الصحفيين حينها، وبتغطيةٍ على الهواء استمرّت أكثر من 4 ساعاتٍ متواصلة، وتصدّرت العناوين، ولا سيما مع وجود الرئيس الأمريكي في بولندا المجاورة حينها. كانت تجربةً أيضا لا تُنسى وتطبيقًا عمليًّا لمبدأ ملاحقة الخبر الذي أهواه.

إلى العاصمة..

مع بدء انسحاب القوات الروسية من محيط كييف، طُلب منّا الانتقال إلى هناك سريعا وإعداد مجموعةٍ من القصص عن واقع السكّان فيها وتسليط الضوء علــى أولــى موجاتِ العودة بعد الدمار الذي أصــاب المدينة ومحيطها، ورغم كوننا كنا نغطي انفجارًا في الغرب حينها، فإننا أتممنا عملنا وانطلقنا نحو محطة القطار، وفي الطريق تمنى الزملاء أن نفكر في إعداد قصّةٍ على متن القطار عن العائدين إلى العاصمة هذه المرّة بعدما كان قد فرّ منها مئات الآلاف حينها.

وبالفعل، وســط الكثير مــن الرجال العائدين لتفقّد مــا إذا كانت المدينة وبيوتهــم تصلح لإرجــاع عائلاتهم إليها بعد انســحاب القوات الروســية من أطرافهــا وتراجع وتيرة القصف، صادفنا رجلا وزوجته ومعهما طفلهما الصغير

إلى جانب القطار؛ كانت العائلة الوحيدة العائدة التي صادفناها على متن قطارنا. لكنّ المفاجأة أنني عندما تقدمت لتعريفهما بنفسي وسماع قصتهما، اندهشت لأن الرجل أوكرانيٌّ من أصل عربي، وزوجته أوكرانية، أنجبت طفلها "سـمير" قبل يوميـن فقط من اندلاع الحرب! واضطرت العائلة للهرب سـريعا، لكنّ أحوال اللجـوء كانت صعبة جدا، و"إياد" زوجها الفلسـطيني الأصل الإعلامي العربي الأوكرانـي، اقترح عليها العودة فور سـماع أخبـار تراجع حدّة الخطر، وهو ما جرى! كانت القصة بتفاصيلها مفاجَأة للغاية، وبالفعل رافقنا العائلة طيلة رحلتها، ووصلنا إلى كييف، وشـاهدنا بعيونهم كما نقلنا بكاميرتنا، صدمتهم من مشاهد الدمـار وآثاره علـى المدينة، وكيف اختلف حالها عمّا اعتادوا عليه، لدرجة أن "يوليا" -زوجة بطل قصتنا- لم تسـتطع التعبير! وكان ذاك أول تقريرٍ ننجزه في العاصمة نقلنا فيه مشاعر العائدين بلسانٍ عربيّ هذه المرّة!

ثم واصلنا مهمةً طويلةً في العاصمة، نغطّي فيها دخول السكّان إلى بيوتهم في مناطق سيطر عليها الروس بالفعل في محيط "كييف" أكثر من شهر، ودخلنا بيتا في مدينة غوسـتوميل شمال غربي العاصمة، مع "فولوديمير" صاحب البيت الـذي كان قـد أتم حديثـا تصميمه وترتيبه وما زال يدفع أقسـاطه منذ ما قبل الحرب، ليراه بحالٍ مختلفةٍ تمامًا وقد سـكن البيت جنودٌ من القوات الروسـية عرفناهم بآثارهم الكثيرة التي تركوها، ومخلفات طعامهم ومعداتهم.. وأكثر من ذلـك، مما صادفنا من ألغام زُرعت في المبنى على أبواب المنازل، وقد تمكّن مساعدنا الأمني من رصدها مباشرةً وتحذير الجميع من الاقتراب منها.

في كييف، وإن كانت القوات الروسـية قد انسـحبت، فإن القصف البعيد المدى لم يكن يتوقّف، ولا سـيما على أهدافٍ عسـكريّةٍ ومؤسسـاتٍ صناعيةٍ معروفة، فقمنا بتغطية ذلك القصف، وحرصنا، كواجبِ كلِّ صحفيّ مهنيّ، على ألا نقع في شرك أي شكلٍ من أشكالِ "البروباغندا"، وهو ما جرى حينما سمعت صوتَ انفجارٍ قويّ وسطَ العاصمة في اليوم الذي زارها فيه الأمين العام للأمم المتحدة، بعدما كنّا قد رافقناه في زيارته كلها.

كان مصوري على موعدٍ مع تصوير مقابلةٍ مع أحد المسؤولين برفقة منتج التغطية، فاضطررت مجددًا إلى أن أتوجه بهاتفي نحو مكان الصوت، وهي قصّة

أذكرها ليس لتسطير البطولاتِ، فهذا هو الأمر الطبيعي والدور اللازم لأي صحفي حريص على أداء مهمته يمكن أن يكون مكاني، وإنما للتأكيد على مدى فاعلية الهاتف النقال، وصحافة الموبايل في تغطية أحداثٍ كبرى عند الحاجة... وصلت أولاً إلى الموقع المستهدف، وعرفته مباشرةً لكونه قد استهدف سابقا.. الموقع يحتوي على شركات طيران ومصانع دفاعاتٍ عسكرية، وهو تماما ما ذكرته مباشرةً على الهواء بعدما خرجنا أكثر من ساعةٍ على الهواء عبر الهاتف فقط، بصورة الحدث وصوتي للتعليق على ما نشاهده، إلى أن وصل المصور، لنكمل التغطية من المكان.. فالحدث له رمزيةٌ كبيرة في مكانه وتوقيته. أثناء تغطيتنا وصل أحد المسؤولين إلى الموقع، وسمح للصحفيين بمرافقته دقائق نحو مكان الاستهداف، حيث أشار إلى مبنى سكني أصابه أحد الصواريخ فأحدث فيه دمارًا كبيرًا، تبعتهم وأنا أدقق في المنطقة جيدًا وإذ بي أجد المبنى السكني قد أصيب بالفعل، إلا أن مقابله تمامًا مصنع للدفاعات العسكرية قد استهدف أيضًا بصاروخ وتتصاعد منه أعمدة الدخان، بعدما صور الصحفيون المبنى السكني، فرضت السلطات عليهم الخروج سريعًا، وكنت على الهواء مباشرةً، توجهت إلى المسؤول على الهواء وسألته عن القصف، ودلالاته، وحينما أشار إلى المبنى السكني على أنه المستهدف فقط، ما كان منّي إلا أن أشرت له إلى المبنى الآخر العسكري وأنا على الهواء، حتى وإن كان ذلك قد يكلّفني كثيرًا، إلا أنني لم أستطيع أن أترك الأمور تسير باتجاه واحدٍ فقط، وقد أجابني بأن ذلك "لا يهم"، فالأهم هم المدنيون في رأيه، لكن المفاجأة كانت بسؤاله عن اسم القناة بعدها وحين أجبته، ردّ بـ"سوبر"، ثم بعد الهواء عرفني بنفسه، وكان مستشارًا لوزير الشؤون الداخلية، وعبّر بإيجابية عن مهنية المقابلة في ظرف كهذا.

قصصٌ كثيرةٌ استعرضناها في كييف، مركز صنع القرار، ومسرح أحداثٍ كبرى جرت خلال فترة ما قبل انسحاب القوات الروسية من محيطها، أبرزها كان تنفيذ تقريرٍ مع وحدة "بوغاتي" المختصة بطائرات الدرونز، التي ساهمت في رصد آليات القوّات الروسية ومواقعها وتقديم المعلومات للمدفعية لاستهدافها! ورغم ما اكتنف عملها من سرية، فقد كشفنا عن جانبٍ من عمل القائمين على هذه الوحدة وآلياتهم، وتتبعنا اللقطات التي حصلنا عليها منهم لمواقع القصف والآليات العسكرية، إلى أن وصلنا إلى الدبابات والمواقع التي ظهرت بالصور

وسط الغابات، واستعرضنا حالها وهي مدمرة، في تجربة فريدة بالنسبة لنا على الأقل، لكنّ الطريف في القصة، أنني فوجئت بوجود علم "لبنان" على جعبة أحد أفراد الوحدة! وحينما سـألته عن ذلك أبلغني أن اسـمه "علي"، وأنه من أصول لبنانية تعود إلى قرية "شمسطار" في البقاع!!

كانت إشارةً جديدةً عن مدى تغلغل العرب في هذا المجتمع رغم قلتهم، وهـو ما لمسـته من الجالية العربية والمسـلمة مع كلِّ يـوم يمر علينا في هذه التغطيـة، حيث برزت نماذج عديدة أظهرت مـدى انتمائها ووقوفها مع وطنها الثاني في هذه الحرب، وكان أبرز الأمثلة مفتي البلاد، الذي خلع الزي الديني، وارتدى العسـكري وتفرغ للقتال منذ بداية الحرب، وهو ما لاقى إشـادةً كبيرةً من مختلف فئات المجتمع الأوكراني.

زابوروجيا والقادمون من آزوف ستال

سـيطر على المشهد أسـابيع خلال شهري أبريل/ نيسان ومايو/ أيار حدث مصنع "آزوف ستال" في مدينة ماريوبول، والمحاصرين فيه من مدنيين ومقاتلين، بعدما سيطرت القوات الروسية والفرق الموالية لها على المدينة.

وكانت الجهود على أعلى المستويات تُبذل لإخراج المدنيين الذي أمضوا أكثر من شهرٍ في تلك المدينة الصناعية في ظروفٍ لا يمكن تخيلها.

وما إن شعرنا بأن موعد إتمام عملية إجلاء عدد منهم قد اقتربت حتى تقرر التحرك بشكل عاجل نحو منطقة وصولهم المتوقعة في زابوروجيا؛ تلك المنطقة التي تتقاسم القوات الروسية والأوكرانية السيطرة على مناطقها.

رابطنـا مع مئات الصحفيين في المكان، والجميع يترقب لحظة وصولهم، وبالفعل، وصلوا وكانت الكاميرا لا تكاد تستطيع نقل ردودهم ونظراتهم التائهة بعد خروجهم إلى العالم والحياة من جديد، كنا حريصين على سماع قصصهم، وكيف عاشوا في تلك الظروف، وبماذا كانوا يشعرون... أتممنا تقريرنا واستضفنا بشكل حصري من عين المكان المتحدث باسم اليونيسيف على الهواء للحديث عن واقع عمليات الإجلاء، والأمل في استمرارها.

إلى الجنوب الأوكراني

كنت أقترب من إتمام شـهري الثالث في تغطية الحرب الأوكرانية بشـكل متواصـل، وكان كلّما قرر زميلٌ المغادرة، يُطلب مني التوجه إلى منطقته لأقوم مقامه، ورغم ما يبدو في الأمر من مشقّة فإنني كنت أنظر إلى كل منطقة جديدة نتوجـه إليها، على أنها فرصة جديدة لإبراز جوانب أخرى من قصص الحرب، وكانت الوجهة هذه المرّة "أوديسـا" والجنوب الأوكراني؛ تلك المدينة الشهيرة بـ"جوهرة البحر الأسود"، التي كانت تشهد جبهةً مختلفةً.. كان هناك صراع على البحر، ومعركةٌ سياسـيةٌ اقتصادية إضافية ترتبـط بالحبوب المتوقفة في موانئها المعطلـة منذ بداية الحرب، ومدى تأثير اسـتمرار هذه الحالة على العالم، ولا سيما مع خشية وقوع أزمة غذاءٍ عالمية.

سريعا بدأنا العمل على التوجه إلى أحد حقول زراعة القمح، للتعرف على واقع زراعة أهم أنواع الحبوب بالنسـبة إلى العالم الذي كان يعتمد أيما اعتماد على أوكرانيا للحصول عليه، وبالفعل تمكنا من اسـتعراض القصّة من مختلف جوانبهـا في حقول القمـح، والصوامع، والموانئ.. إلا أن المفارقة كانت دويّ صفـارات الإنـذار أثناء تصويرنا خاتمة التقرير.. وهو مـا دفعنا لتصويرها أثناء تلك الأصوات والإشارة إليها، وكأنها كانت تشير إلى صدى الحرب على هذه القضية الحساسة بالنسبة للعالم.

أما في المقاطعة القريبة، "ميكولايف"، فكانت المعارك قد اشتدّت كما اشتدّ القصف على المدينة ومحيطها، في محاولةٍ من القوات الروسية للتقدم نحوها، إلا أن القـوات الأوكرانية كانـت قد وضعت ثقلها في المقاطعة، وعملت على بناء خنادق محصّنة تحميها من القصف، وتحاول عبرها منع محاولات التقدم. صممت على التوجه إلى تلك الخنادق على الخطوط الأمامية، لاستعراض واقع الحيـاة فيها، وهو مـا جرى بالفعل.. اصطحبنا الجنود إلى أقرب الخنادق على الجبهة الشـرقية وكان القصف عنيفا على محيطها، وهناك تعرفنا على تفاصيل حيـاة الخنادق، وصادفنا جوانب لم نكـن نتوقعها، كحصول الجنود على ثمار محاصيل المزارعين في المناطق القريبة، حتى "العسـل" من مناحلهم، وهو ما استعرضناه في القصة، بالإضافة إلى رسومِ أطفالٍ فوجئت بوجودها داخل فرق

الخنادق، وهي ذات الرســوم التي كنت قد صورت أمثالها في لفيف عند بداية التغطية، لأمهاتٍ يضعنها مع المؤن المخصصة للجنود، على أنها رسائل دعم من أطفالهن إلى المرابطين في الجبهات، وقد تُرجم التقرير وبثَّته قناة الجزيرة بلقّان.

كان القصف لا يتوقف هناك، والتغطيات تتواصل بوتيرةٍ متسارعة وبشكلٍ مختلفٍ عمّا اعتدت عليه، وكانت الأمور تتجه لتصبح أكثر خطورةً ودقّةً إلا أنَّ تزايد اهتمام العالم بقضية الحبوب دفعني إلى العودة إلى أوديســا، لاســتكمال اســتعراض جوانــب تلــك القضية الأساســية على جدول أعمــال العالم، ولا ســيما مع تصاعد الحديث حينها عن احتمال قيام القوات الروســية بتنفيذ إنزالٍ بحري على ســواحل المدينة، مما دفعني إلى طلب تصوير اســتعدادات القوات الأوكرانية لمثل هذا السيناريو، وهو جانبٌ لم تتمكن وسيلة إعلامية من تنفيذه نظراً لإغلاق الباب أمام مثل هذا الطلب من قبل القوات الأوكرانية إلا أنني لم أستســلم للرفض، وساعدتني سلســلة التقارير المختلفة، والتغطية الطويلة التي عززت الثقة في طلبي فحصلنا على إذنٍ لنكون أول وآخر وسيلة إعلامية تغطي هــذا الجانــب في ذاك الوقت، ولنتمكن من الوصــول إلى موقع لقوات الدفاع البحري، والاطلاع على أسلحتهم وجوانب سُمح لنا بتصويرها من استعداداتهم في حين بقيت جوانبُ أخرى ســريّة، وليكون هذا التقرير الخاص حينها، آخر تقاريــري فــي تغطيةٍ دامت 103 أيام متواصلة من دون انقطاع، وهي أطول مدّةٍ لمراسلٍ أجنبيٍّ بشكلٍ عام ولدى الجزيرة بشكلٍ خاص يغطّي الحرب الأوكرانية.

رحلــت عن أوكرانيا حاملًا كل ما مضى مــن قصص وتجارب وتفاصيل عشــتها في تلك الفترة الطويلة، متوقعًا أنني لن أعود إليها في القريب... لكنني عدت؛ وتلك قصة أخرى.

حياد الجزيرة

عمر الحاج



في العشـــرين من شهر فبراير/ شباط، الساعة العاشرة مساء، جاءني اتصال من مديري عبد العظيم محمد يطلب مني أن أتجهز للسفر غدا على أول طائرة باتجـــاه أوكرانيا لتغطية ما كان يعرف حينها بالتوتر بين أوكرانيا وروســـيا. كنت مثل الكثيرين لا يستقر لي رأي حول ما كانت هذه الأزمة ستمر دون توتر كما حدث العام المنصرم، إذ قيل حينها إن فتيل الأزمة نزعته وساطة تركيا بعد زيارة الرئيس الأوكراني فلوديمير زيلينسكي لتركيا في العاشر من أبريل/ نيسان 2021، ولقائه الرئيس رجب طيب أردوغان في إسطنبول، وتأكيد الأخير أن هذه الزيارة ليست تشكيلا لجبهة ضد طرف ثالث (يعني روسيا)، بل على العكس هي مبادرة لتخفيف التوتر بين روسيا وأوكرانيا، وربما توطئة لحل شامل بين الدولتين. أذكر ذلك لأنني غطيت الزيارة حينها في إسطنبول، وكنت أضع نصب عيني ما جرى فيها وما بعدها من أحداث أثناء تجهزي السريع لهذه المهمة.

خلال ســـني عملي الإحدى عشـــرة مع الجزيرة، التي تعد قصيرة نســـبيا، غطيـــت عددا لا بأس به من الحـــروب والنزاعات في مناطق كانت تعد متوترة إلى حد ما، على رأسها الحرب في سوريا، والعمليات العسكرية التركية الثلاث التي شنت ضد تنظيم الدولة، ومن تسميهم أنقرة أذرع حزب العمال الكردستاني في سوريا، إضافة إلى حرب أذربيجان ضد أرمينيا.

استفدت من ذلك كله، وبالذات الحرب في سوريا، التي طبعت في وجداني تجربة ثرية حول كيفية تغطية الحروب وما يشوبها من لغط كثير وما يصحبها من حروب إعلامية، بل أحيانا استغفال الأطراف المتصارعة للصحفيين، بعلمهم أو من دون علمهم، لترويج رواية على حساب أخرى.

وأنا أســـير لتغطية الأزمة، التي تحولـــت إلى حرب فيما بعد، عمدت إلى البحث عن المصادر التي سأســـتقي منها الخبر فكان أن اســـتقرت وجهتي بدءًا على وكالة الأنباء الرسمية الأوكرانية ونظيرتها الروسية، ثم حسابات المسؤولين الفاعلين في كلا الجانبين، على أن الفاعلين والمؤثرين من بين أولئك المسؤولين لـــم يكونوا بالضرورة الأعلَيْن منصبًا فـــي أوكرانيا على وجه الخصوص، فعلى سبيل المثال كانت حسابات بعض المسؤولين الذين لا يتعدى وصفهم مستشارا

في مكتب الرئاسة أنشط بل أنفع من حساب رئيس الوزراء نفسه، وأحيانا من وزارة الدفاع والخارجية، بينما كان الأمر صارما في وكالة الأنباء الروسية، ونابعا من المسؤولين كل بحسب اختصاصه.

لكن ذلك أيضا لم يسعفني، على الأقل في الجانب الأوكراني؛ فحساب وصفحة وكالة الأنباء الأوكرانية الرسمية "يوكراين فورم" أو الرسمية الأخرى "يونان"، كانا غاية في البطء فيما يخص الخدمة باللغة الإنجليزية، وأسرع بدرجة منها باللغات الأوكرانية والروسية، وما كنت في بداية الأمر أحبذ استخدام مترجم غوغل لعدم الثقة بدقة ترجمته، لكنه حقا أثبت جدارة ونفعا، خاصة أن الأيام بينت دقة الترجمة فعليا، وكانت تقتصر مشكلتها على الصياغة غير المرتبة.

ولأنني كما ذكرت لم أجد ضالتي في المصادر الرسمية فقد بدأت أبحث عن مصادر أخرى، ومما اكتشفته مذ كنت في أذربيجان أن هذا الجزء من العالم يعتمد كليًّا في التواصل وتناقل الأخبار على تطبيق التليغرام والفايبر، حتى لكأنك لا تسمع ذكرا للواتس آب ومجموعاته هنا، أو حتى تويتر، وكنا في كثير من الأحيان ننقل ما تبثه كبرى هذه المجموعات من أخبار وفيديوهات بعد التثبت منها، حتى أصبحت مصدرا يمكن الاعتماد عليه، إذ إنها في كثير من الأحيان كانت تسبق المصادر الرسمية. وهنا لابد أن أذكر أحدها على وجه الخصوص؛ فعندما وصلت إلى البلاد كانت هناك مجموعة لا يصل عدد المشتركين فيها إلى خمسين أو سبعين ألفا، وإن لم يكن ذلك بالرقم القليل على التليغرام، أما الآن فإن عددهم قد ناهز مليونًا وثلاثمئة ألف مشترك.

تغطيتي للحرب في سوريا كما ذكرت ساعدتني على توقع بعض المسارات وماهية ما سيحدث، وخاصة عمليات الحصار لبعض المناطق، والاستخدام المفرط للقوة حتى ضد المدنيين، وأننا بلا ريب سنكون أمام موجات نزوح كبرى خاصة مع بدء الهجوم فجر الرابع والعشرين من فبراير/ شباط 2022، وإن كان الهجوم قد باغتني أنا شخصيًّا؛ إذ كنت في القطار حينها متوجها من كييف إلى ماريوبول مساء الثالث والعشرين من فبراير/ شباط، و كان من المفترض أن يصل القطار عند الساعة الثامنة أو التاسعة صباحا إلى ماريوبول، لكن الهجوم بدأ فجر الرابع والعشرين... استيقظت على طنين الهاتف الذي كان لا يتوقف،

وكنــت أظــن أنني بين الصحو والنوم، ثم رأيت القطار يتحرك جيئة مرة وذهابا مــرة أخرى، وما إن اتضح الخبر حتى اســتقر رأي قائــد القطار على أن يعود أدراجــه إلى نقطة أبعد من ماريوبول تبعد عنهــا أربعين كيلومترًا. هنالك قررنا مغادرة القطار في مكان لا نعرف جغرافيته، ولا نتحدث لغته، وليس معنا أحد. فقد كان الاتفاق أن يســتقبلنا منتج محلي من ماريوبول اســمه "ساشا"، نسق لنا مكان الإقامة ووسيلة للتنقل، وكنت أتواصل معه وأنا في القطار لمعرفة ما لذي يحدث هناك وما إذا كانت ماريوبول، كما أظهرت الصور لاحقا، تُدكُّ برًّا وبحرًا وجوًّا. وقد حاولت القوات الروســية بشــتى الوسائل إجراء عمليات إنزال دون جدوى؛ كيف لا وقد كان في المدينة عشــرة آلاف من مقاتلي ما يعرف بلواء آزوف الذين قاتلوا فعليًّا، كما تبين لاحقا، حتى آخر رجل، وفيها اثنا عشر ألفا من مشاة البحرية الأوكرانية، عدا المتطوعين في وحدات الدفاع الشعبي.

تلك الساعات الاثنتان والسبعون كانت ملحمية في تغطيتي بكل المقاييس، وإن كنت سأشــير اختصارا إلى بعض ما وقع فيها فإن التفاصيل ســأوردها في رواية أعكف عليها حاليًّا؛ أتحدث فيها عن يومياتي بوصفي صحفيا وإنسانا غطى الحرب في أوكرانيا.

كمــا قلــت؛ نزلنا في مكان لا نتحدث لغتــه ولا نعرف فيه صديقا، وكان تواصلي مع ساشــا محدودا؛ أطمئن عليه ســاعة، ويعطيني أخبارا عما يشاهده ساعة أخرى. ورغم أن المسافة كانت بعيدة فإنني كنت أسمع بوضوح أصوات الانفجارات التي لم تتوقف قادمة من ماريوبول؛ أسمعها بكل وضوح من هاتفي وأنا أتحدث مع ساشــا الذي كان ذلك آخر عهد لي به، ولا أعرف حتى الآن هل لا يزال على قيد الحياة أم أنه قتل مع من قتلوا!

كنا نعوِّل عن مرافقنا الأمني الذي شاء الله ألا يسمح له بأن يستقل القطار معنــا لأنــه لم يتلق أي جرعة لقاح ضد فايــروس كورونا، واضطر إلى ركوب الحافلة، ومن حيث كنا نظن ذلك شــرًّا لنا تبيَّن أنه كان الخير كله؛ فقد حطت حافلتــه فــي زابوروجيا، وطلبت منه أن يؤمِّن لنا أي ســيارة نكمل بها الطريق باتجاه ماريوبول التي لم تتمكن أرتال السيارات من الفرار منها كما رصدنا ذلك من محطة القطار.

ساعات الانتظار القاتلة مع أصوات الانفجار التي لم تتوقف ما كنت لأتركها تمضي هباءً؛ بل بادرت بالظهور في مداخلات تلفزيونية.

وصل منقذنا، وكان اسمه "غوسيبي".. كان إيطاليًّا أخبرني سابقا أنه كان ممن قاتلوا هنا عام 2014 في ماريوبول ودونباس.

لم تفلح كل محاولات الإقناع التي عرضناها على حاجز الجيش الذي نصب عند مدخل مدينة ماريوبول للسماح لنا بالتوجه إلى المدينة. اتهمنا الجندي بالجنون، وطالبنا بعنف، بعد إلحاحنا عليه، بالمغادرة فورا.

لم تكن لديّ خطة لكنني شرعت في إعدادها ارتجالًا... الحديث كان يدور حينها أيضا عن "بريدنسكه" و"مليتوبول"، وهما مدينتان استراتيجيتان على بحر آزوف تبعدان نحو مئة كيلومتر غربي ماريوبول، تابعتان لمقاطعة زابوروجيا.. قررنا التوجه إلى هناك للوقوف على ما يحدث.

المدينتان وأهلهما كانوا في حالة صدمة... على الطريق كنت أشاهد أرتالا من السيارات المدرعة الأوكرانية المحترقة، وبعض آخر منها كان يبدو كأنه قد تُرِك أو أُحرق عمدا.

كنا نصل إلى هاتين المدينين تباعا ونظهر فيها للمداخلات، وكانت كلاهما تسقط بيد الروس بعد ساعتين أو أقل من لحظة خروجنا. وصلنا عاصمة المقاطعة، مدينة زابوروجيا، كان كل شيء غامضا كمعالمها بالنسبة لي... لا جيش، ولا نقاط تفتيش، ولم يبعث في نفس أهلها الطمأنينة إلا رتل عسكري دخلها بعد منتصف الليل، ولا أدري ما إذا كان هذا الرتل منسحبا من الجنوب أم تعزيزات عسكرية دُفِع بها إلى المدينة.

طوال الطريق كنا نتوقف ونظهر في المداخلات إلى أن وصلنا إلى "دينبرو"، إحدى كبريات تلك المدن وأهمها اقتصاديًّا وصناعيًّا... كانت درجة الحرارة سالب ثمانية أو تسعة، وربما وكان آخر ظهور لنا عند الساعة الخامسة فجرا قبل أن نجد لأنفسنا فندقا أقمنا فيه حتى الصباح.

تابعنا التغطية في اليوم التالي، وكنا نتشاور حول المكان الذي علينا أن نتخذه موطئ قدم للتغطية، فكانت الحيرة بين خاركيف وأوديسا، على اعتبار أن دينبرو لما يصبها الكثير في تلك الساعات، لكن رأي إدارة التخطيط حينها

استقر على أن نعود أدراجنا إلى العاصمة التي فُتحت عليها جبهات شتى، وخيرا فعلنا؛ فقد كانت الساعات التالية أشد وطأة على العاصمة من اليوم الأول.

وصلنا قبيل منتصف الليل إلى محطة القطارات، وكانت أصوات الانفجارات تتوالى من كل صوب، وهناك حظر تجول قد طُبِّق ابتداءً من الساعة الثامنة مساءً، وكان الجميع قد اتخذ من المحطة مكانا ينتظر فيه الصباح.

ومذ أن حطت أقدامنا في محطة القطار شرعنا في الظهور في المداخلات، وبالرغم من أننا استأذنا من القائمين على شؤون المحطة في الظهور من داخلها فإنَّ رجل شرطة -ربما كان يواجه ليلة عصيبة- قاطعنا أثناء البث، وحاول منعنا من المتابعة، قبل أن يعود ويعتذر منا.

في ذلك اليوم ظهرنا في مداخلات متواصلة منذ منتصف النهار حتى الساعة السابعة مساءً، ورصدنا في تلك الساعات ونحن نبث من الشارع طائرات مسيرة وأخرى نفاثة روسية فوق المدينة، وكانت درجة الحرارة قد تجاوزت عشر درجات سالبة، وقد تجولنا في أرجاء العاصمة التي استُهدفت أحياؤها وشهدت محاولات إنزال روسية عدة، ورأينا رتلا روسيًّا مدمرا في حي يبعد عن مركز العاصمة ثمانية كيلومترات فقط.

بالرغم من استهداف الروس أحياء مدن مختلفة أثناء الفترة الأولى من الحرب فإني أستطيع القول إنه لم يحدث استخدام مفرط للقوة، على الأقل كما كان الحال في سوريا، باستثناء ماريوبول التي وصلت منها مشاهد تُذكِّر بما حدث في حلب، كما أننا لم نشهد قتال شوارع في المدن الكبرى على نطاق واسع، لكننا شهدنا بلا ريب موجات نزوح كبرى؛ وصلت في الأسبوع الأول من الحرب إلى عشرة ملايين نازح.

كان الاعتماد في تغطيتنا لمثل هذه الحالات أولا على ما تقع عليه العين من مشاهدات أو ما نسمعه من انفجارات، وإن كانت الأولى قلَّما نراها، أما الانفجارات فكنا نسمعها بوضوح، خاصة بعد انتقالي إلى العاصمة إذ كان بالإمكان تحديد جهتها بسهولة، خاصة مع اقتراب المعارك إلى مناطق لم تكن تبعد عن مركز العاصمة في بعض الأحيان إلا 17 كيلومترا.

بعد اليوم السابع من الحرب تقريبا، وخاصة بعد بيان لوزارة الدفاع

الأوكرانية تحدثت فيه عن مقتل خمســة آلاف مقاتل روسي منذ بداية المعركة، أخذت عهدا على نفسي ألا أعتمد هذا النوع من المعلومات حتى وإن كان من الجهات الرســمية، والأمر كذلك بالنســبة لي فيما يتعلق بالبيانات الصادرة عن الجانب الروســي الذي قال إنه دمر 289 منشأة عسكرية خلال الساعات الأربع والعشرين الأولى من الحرب!

حينهــا كان واضحــا بالنســبة لي على الأقل أن الأمر سيســتمر على هذا المنوال، وســتُطرح أرقام لا يســتطيع أي صحفي محايد الوقوف على صحتها، فصرت شــخصيًّا أتجنبها، لكنني كنت أذكر عدد الدبابات والطائرات مثلا، لأن الوكالات الرســمية، ســواء الأوكرانية أو الروسية، كانت دائما ما تقرن الأخبار بصور عن هذه الخسائر في الطرف الآخر.

كنت، كباقي الزملاء، حريصا كل الحرص على المبالغة في الحياد إن جاز التعبير، وما يشهد لنا هو أننا كنا من المحطات العالمية النادرة التي تملك شبكة مراســلين في كلا الجانبين؛ الروســي والأوكراني، بينما غابت فرق المحطات الكبرى كالـ"بي بي ســي" والـ"ســي إن إن" و"سكاي نيوز" وغيرها عن الجانب الروسي، بل أغلقت مكاتبها هناك في بداية الحرب.

الإعــلام الغربي كان واضحا فــي انحيازه للجانب الأوكراني، وكان يروج دائمــا لــكل ما يصدر منه، ويأخذه على عواهنــه، بينما كنا في الجزيرة نحرص أشــد الحرص على إعطاء المســاحة الوافية والكافية لرواية كلا الجانبين، وكنا ننقل أثناء القصف في كييف مثلا اســم المكان، وما إذا كان قد ســقط في هذا المكان ضحايا، ولا نصف الضحايا بالمدنيين إلا حين نتأكد بأنفســنا من ذلك حتى وإن كان القصف لمدرســة أو مركز تســوق؛ فقد كان لزاما علينا أن نتأكد حتى نستعمل الأوصاف الصحيحة عن بيِّنة، وحتى لا يأتي الطرف الآخر بصور تثبت عكس ما نقول، ولعل مبنى مركز "روليت للتسوق"، وسط العاصمة، الذي سُوّيَ بالأرض، خير مثال؛ إذ ليس الروس فقط من بثوا صورا تُظهر وجود آلات عسكرية فيه، بل إنَّ مدونا أوكرانيًّا عبر تطبيق التيك توك، قد التقط صورا لبعض هذه الشــاحنات العسكرية وشاركها على حسابه ليُقصف بعدها المكان ويُسوّى بالأرض.. ولا أدري هل تعمد تصوير ذلك أم كان الأمر بهدف كسب الشهرة،

وها هو الآن يقضي حكما بالسجن سبع سنوات جرَّاء ما فعل.

لقــد التزمت الجزيــرة وطواقمها مبدأ الحياد، علــى عكس باقي القنوات العالمية المعروفة والمشــهورة، التي راح بعض مراســليها على الهواء مباشــرة يشرح للأوكرانيين ما هي نقاط ضعف الدبابات الروسية، ومن أين يمكن تحقيق أكبر قدر من الضرر فيها... وكنت أتسأل وأنا أشاهد ذلك الصحفي وهو يشرح على الهواء مباشرة ذلك متقمصا دور "چي غيفارا"، ماذا لو أقدم صحفي عربي مثلا على مثل هذا أيام حرب العراق أو سوريا كيف سيكون مصيره؟

بوصفي مراســلا غطى الحرب في سوريا كنت أستطيع القول بوضوح مرة أخرى إن المقاربة الروسية في استخدام القوة المفرطة كما شهدتها بأم عيني في عموم سوريا أو ما شهده العالم في الشيشان أواخر التسعينيات ليست هي ذاتها المستخدمة في أوكرانيا، وقد تكون ماريوبول استثناء من ذلك نوعا ما، لكنها مع ذلك لم تتعرض على الأقل من وجهة نظري للصواريخ الفراغية التي كانت تدك أعتى الأبنية فتجعلها أثرا بعد عين. وحتى الغرب، بشقيه العسكري والإعلامي، لم يشــر ولو مرة واحدة إلى اســتخدام مثل هذه الصواريخ في أوكرانيا. أذكر هذا لأنه أرســى في نفســي شيئا من الطمأنينة مبعثها أن الأجواء هنا مختلفة عن ســوريا التي كان كل شــيء فيها مباحا، وكل ما كان يتحرك عرضة للاستهداف من قبل الجيش الروسي، مما أعطاني الشجاعة أكثر للاقتراب من مناطق القصف والجبهات بقدر ما كانت تسمح لنا به السلطات الأوكرانية.

بعد فترة أصاب الحراك العســكري، تحديدا في كييف ومحيطها، نوع من الرتابة، وأصبحت القوات الروســية، خاصة بعد الحادي والعشرين من مارس/ آذار، محاصَرةً لا مُحاصِرة، وكانت كييف وضواحيها قد بدأت تتنفس الصعداء، ولم تمض أيام حتى أعلنت القوات الروسية انسحابها من محيط كييف، ثم من "تشــرنيهف" وأخيرًا من "سومي"، وكان هذا الانسحاب فرحةً للأوكرانيين، لكن ذلك الفرح لم يكتمل؛ فانســحاب القوات الروسية التي دخلت محيط العاصمة كشف عن جرائم بشعة.

لم أكن أول الواصلين إلى تلك المدن التي شــهدت تلك المعارك لكنني رأيت بأم عيني الجثث المتكدسة في "بوتشا"، سواء في المقبرة المشهورة بجانب

الكنيسة أو الأخرى التي كانت في قبو بناء تبين أن الجيش الروسي اتخذه للتحقيق مع من اعتقلهم في المدينة من المدنيين، حيث وجدت تلك الجثث مكبلة الأيدي إلى الخلف، وربما قضى بعض هؤلاء حتفهم أثناء التعذيب.

لا يمكن الصحفي أو أيّ إنسان إلا أن يصف هذه المشاهد بأنها جريمة، وما يجري من تحقيقات الآن وسط إنكار الجانب الروسي لن يغير من وصفها شيئا، أما العقاب، إن كان سيوقَع بالمرتكبين، فهذا يُسأل عنه أهالي ضحايا سربرنيتسا وسراييفو، وأهالي دير الزور والحولة والغوطة... فالإجابة عندهم أبلغ، فكل أولئك ما زالوا ينتظرون عدالة توشك ألا تتحقق.

أنا الآن في "كرامتورسك" حيث يُعتقد أنها، وفق مراقبي الحرب، ستكون ماريوبول جديدة إن تمسك الأوكرانيون بالدفاع عنها.

لم أبتعد عن التغطية الميدانية ولكني أريد أن أتحدث أكثر عبر تغطيتي عن الجانب الإنساني وهو ما فعلت، عن المسنّين الذين لا يريدون الخروج من المدينة التي قُتل فيها قبل أيام 57 مدنيا بقصف استهدف محطة القطار التي كانت تعجّ عجًّا بالناس، والذين كان منهم من لا يريد الخروج لأنه مقتنع بأنه لن يلتفت إليه أحد وهو في مهجره، ومنهم من يميل إلى الجانب الروسي مشيرا إلى ذلك تلميحا لا تصريحا، ومنهم من لا يملك حقا تكلفة الرحيل.

تحدثت عن هؤلاء وعن عائلات المصابين بالأمراض العقلية الذين أرسلهم المستشفى مرة أخرى إلى أهاليهم بعد أن أغلق أبوابه، ومن بين أولئك حالة ابن السيدة "لوبوف"، الذي كان يعالج مدة ثمانية عشر عاما، ولك أن تتخيل حال أهله، وأمثاله كثر، وهم عاجزون عن رعايتهم، ولربما بعد الحرب سيزداد عدد المصابين بالأمراض العقلية وربما سيقل عدد السكان.

مصنع آزوف ستال

سقطت ماريوبول قبل أن أغادر للمرة الأولى في أواخر شهر أبريل/نيسان 2022، بشكل متسارع، وكانت النهاية غير متوقعة للكثيرين، فالجيش الأوكراني كان يقول إنه عاجز عن فك الحصار لكنه لن يتخلى عن أبنائه، أما المدافعون عن المدينة وعوائل أولئك الجنود فقد استمروا في الانحسار والتقهقر حتى استقر بهم المطاف في مصنع للحديد والصلب اسمه "آزوف ستال".

كان مصنـع آزوف سـتال قلعـة منيعة نُشـرت حول سـراديبه ودهاليزه الحكايـات، ومنها ما وصـل حد المبالغة، ومن ذلك مثلا أن فيه مزارع صغيرة لبعـض الخضـراوات وأن المتحصنين فيه لديهم ما يكفي من السـلاح والعتاد للقتال عدة أشهر.

أذكر أنني التقيت أم قائد اللواء المنتشر في ماريوبول المحاصر مع رفاقه، كمـا التقيـت أمهات وزوجـات بعض الجنود، ولا أدري مـا إذا كانت محض مصادفة لكنهن كلهن حين كن يصفن أبناءهن أو أزواجهن كن يقلن إنهم كانوا أشخاصا هادئين، قليلي الاختلاط مع محيطهم، لكنهم كانوا يتغيبون عن المنازل بشـكل دوري فترات قد تصل إلى أسـابيع منذ حرب عام 2014 حين تأسـس اللواء.

حيـن طوق الـروس المصنع كان مجموع ما فيه من المقاتلين الأوكرانيين يقترب من ألفي مقاتل، وكان فيه أيضا مثلهم أو يزيدون من المدنيين من الأطفال والنساء والشيوخ.

تقدَّم المحاصرون بعدة عروض؛ منها نقلهم إلى مناطق أخرى في أوكرانيا، ثـم عـادوا فاقترحوا المغادرة إلى تركيا والبقاء فيهـا حتى انتهاء الحرب، لكن الروس والانفصاليين الموالين لهم قابلوا هذه العروض بالرفض القاطع.

حين كنت أتحدث مع زوجة نائب القائد والناطق الرسـمي وتالي بياناته، التي رحلت إلى الفاتيكان مع زوجات وأبناء الصف الأول من الضباط، سألتها: لماذا لا يستسلم المقاتلون؛ فعلى الأقل لن يذبحهم الروس على مرأى من العالم الذي يشـاهد ويسـمع ما يحدث في ماريوبول؟ فقالت: إنهم فكروا في ذلك، لكنهم لا يأمنون الروس. وأضافت: إن بعضهم، ممن لم يسـتطع الاستمرار في المقاومـة، تواصل مع الروس والانفصاليين، فأعطوه الأمان، وما إن خرج حتى أمسـكوا به وقتلوه، ثم قطعوا جسـده، وفصلوا رأسه، وأرسلوا الصور إلى أمه وعائلته، حينها فضلوا الموت على الاستسلام. هذا على الأقل ما قالته لي هذه السيدة، وهو موثق عندي بالصوت والصورة.

إنهـاء حصار "آزوف سـتال" كان بحاجة إلى تدخـل أممي، وبعد ضغط الجميع على روسـيا قبلت أن يستسـلم هؤلاء في صفقة تضمن لهم الخروج

أحيـــاء، وعلاج المصابين منهم، على أن يُعاملوا كأســـرى حرب، وقدمت على المواثيــق، لكننــي حين عدت إلى اوكرانيا مرة أخرى للتغطية في أواخر شـــهر يوليـــو/ تمـــوز 2022، قالت روســـيا إن قصفا أوكرانيًّا وقـــع على مناطق مدنية قريبة من خطوط المواجهة في إقليم دونباس، وإنَّ من بين المنشآت المستهدفة الســـجن الذي كان يُحتجز فيه من استســـلم من عناصر لواء آزوف، وأنه قد قُتل منهم ســـبعة وخمسون شخصا وجُرح العشرات... حينها اتهمت أوكرانيا روسيا بأنها هي من دبرت التفجير لإخفاء ما ســـمته جرائم تعذيب وإعدام ميداني في حق هؤلاء.

ها نحن أولاء في شـــهر أغسطس/آب 2022 ولم تنته الحرب بعد، ويبدو أنها ستسمر، لأن الروس لم يحققوا مبتغاهم، وأنا بوصفي صحفيا وإنسانا سأبقى ملتزمـــا بنقل الحقيقة، رغم ما فيها من مرارة؛ فهذا واجبي وقدري، وأعتقد أني أصبحت معتادا على العيش والعمل وسط الخطر.

حكايات المعبر.. لاجئون ليسوا كغيرهم!

محمد البقالي



جئت إلى بولندا محمَّلا بمشاهد سابقة من قصص اللجوء، لذلك لم يكن عصيًّا عليَّ أن ألحظ الفرق. فلم أر هذه المرة شرطة متحفزة ولا أسلحة مشهرَة، ولا كلابا مدرَّبة ولا أسلاكا شائكة تحول بين اللاجئين وبين العبور.

في محطة القطار في وارسو يتنكر شرطي في زي شخصية "ميكي ماوس" الشهيرة ترحيبًا بالأطفال وبأسرهم. وعلى أرصفة القطارات عشرات من المتطوعين يرحبون باللاجئين الأوكرانيين ويقدمون لهم الماء والغذاء وقبل ذلك وبعده يغمرونهم بكثير من الدفء والأمان اللذين هما أعزّ ما يسعى إليه من خرج من بلده طالبًا النجاة له ولأسرته.

كل شيء يشي بأن البلد يفتح ذراعيه للاجئين.

أعلام أوكرانيا ترفرف في كل مكان، تقتسم الفضاء مع العلم البولندي، ومؤسسات الدولة وجمعيات حقوق الإنسان تجندت كلها لخدمة اللاجئين.

ليس ذلك فقط، فكثيرون فتحوا بيوتهم لاستقبال اللاجئين ليقاسموهم معاشهم وخبز يومهم.

"ذلك أقل ما يمكن أن نفعله من أجلهم! فليس هناك أمرُّ على المرء من ترك دياره مكرهًا". يقول لي ناشط بولندي في محطة القطار في العاصمة البولندية وراسو.

أوشك أن أقول إنَّ الإنسانية بخير!

لولا أني تذكرت أني كنت هنا قبل أقل من ستة أشهر. وشهدت صورة مختلفة تماما، رغم أن الأمر كان يتعلق بلاجئين لا تكاد أوضاعهم تختلف في شيء عن أوضاع اللاجئين الأوكرانيين. فهم أيضا فروا بحياتهم من حرب مدمرة أو من أزمات خانقة تعصف ببلادهم من سوريا أو العراق وحتى من أفغانستان.

لاجئون.. ولاجئون!

كانوا بضعة آلاف من بينهم أسر كثيرة ونساء وأطفال، وصلوا إلى بيلاروسيا بتأشيرة قانونية بهدف الانتقال فيما بعد إلى البلد المجاور بولندا، ومن ثم البحث عن مستقر في أحد بلدان الاتحاد الأوروبي. لذلك لم يطل مكوثهم في العاصمة

البيلاروسية، كانوا يتوجهون فورا إلى الحدود الفاصلة بين بيلاروسيا وبولندا أملا في السماح لهم بالعبور أو بالتسلل.

لكن ما حدث لهم بعد ذلك، كان أسوأ مما توقعوا جميعا.

على خلاف ما حدث مع الأوكرانيين، أُغلقت حدود البلد في وجوههم. لم يسمح لهم بالعبور ومنعوا من التسلل، ليجدوا أنفسهم يقضون أيام الشتاء القاسية في العراء في غابة على الجانب الآخر في بيلاروسيا حيث تنزل درجة الحرارة إلى ما دون الصفر ليلًا.

كان القرار البولندي ومن ورائه الأوروبي حاسما: لن يسمح للاجئ واحد بالدخول. ومن تمكن من الدخول وعثر عليه اقتيد مباشرة إلى السجن. وهناك روايات أكثر فظاعة لم يكن ممكنا التأكد منها.

هكذا حضرت السياسة وغابت الإنسانية.

ولكم أن تتصوروا حجم المآسي التي تخلفها حالة بهذا التعقيد!

قضى عشرات اللاجئين جوعًا وبردًا بعد أن حاولوا عبور غابة متشابكة الأغصان لا يُعرف لها قرار، وعاش الآخرون أسوأ أيامهم وهم يعانون قلة الزاد في برد شديد وقد أحاط بهم عسس وحرس فلا يمكنهم العبور إلى حيث يبغون ولا العودة من حيث أتوا.

لا أحد يزعم أنه أَلَمَّ بحجم المأساة كلها. فجزؤها المخفي كان أكبر من ظاهرها، ومسرحها غابات لا يصلها أحد، لكن قد كنا شهودا على جزء صغير مما حدث...

في ليلة باردة، وبعد أن آوينا كلّ إلى غرفة في فندق صغير في بلدة معزولة على الحدود لا يتجاوز تعداد سكانها ثلاثة آلاف نسمة، توصلت برسالة قصيرة على مجموعة على تطبيق تيلغرام يديرها نشطاء حقوقيون ومدافعون عن اللاجئين.

تقول الرسالة إنهم عثروا على لاجئَيْن سوريين وقد أوشكا على الموت بردًا وجوعًا وسط الغابة.

كان هؤلاء النشطاء قد شكلوا شبكة من السكان المحليين الذين يعرفون مداخل الغابة ومخارجها ينتظمون في ما يشبه الدوريات بحثًا عن التائهين من اللاجئين.

والتيه في الغابة شتاءً كما هو في الصحراء صيفًا يعني هلاكا محققًا.

كان حظ اللاجئَيْن السوريين طيّبًا فعثر عليهما أحد السكان وهما على وشك الموت.

تضمنت الرسالة التي توصلت بها خريطة تحدد بدقة موقع العثور على اللاجئين، وهو يبعد عن موقعنا مسير ساعتين بالسيارة. كان عليَّ أن أغالب التعب بعد يوم طويل، وأصعب من ذلك، كان عليَّ أيضا أن أختار أفضل العبارات لأخبر زميلي المصور سمير بعد أن دخل غرفته متعبًا أن يومنا لم ينته بعد، وأن ليلة طويلة تنتظرنا.

في الحقيقة لم أجد منه إلا الترحاب رغم تعبه. سقنا السيارة ساعتين، لنجد أنفسنا في مواجهة مشهد مخيف. كان الشابان وأحسب أنهما في نهاية العشرينيات أو بداية الثلاثينيات يرتجفان بردًا وتعلو وجهيهما زرقة مخيفة رغم الغطاء الذي تدثرا به. كان يحيط بهما نشطاء وصحافيون ولم نلبث غير قليل حتى وصلت سيارة الإسعاف ومعها سيارة حرس.

بسرعة تمت الإسعافات الأولية، وكان لابد من حملهما إلى المستشفى أملًا في إنقاذهما. وهنا طلب النشطاء من الصحافيين مرافقتهما إلى المستشفى، فهم لا يأمنون الحرس ولا الشرطة، ولا يعلمون ماذا سيفعلان بالشابين إذا استفردا بهما.

كانت تلك واحدة من قصص اللجوء الحزينة، لكنها لم تكن الأكثر مأساوية. فقد دُعينا في اليوم التالي لحضور صلاة الجنازة على لاجئ سوري اسمه أحمد الحسن، في التاسعة عشرة من عمره، توفي غرقًا وهو يهم بعبور النهر الذي يفصل بين بيلاروسيا وبولندا. وقد دُفن بعد أيام من وفاته في مسجد في قرية بوهوموكو المسلمة على حدود بولندا وبيلاروسيا.

ولتلك البلدة قصة تستحق أن تروى، فأصولها المسلمة تعود إلى التتار قبل أربعمئة عام، وسكانها يشكلون أقلية مسلمة صغيرة جدا من سكان بولندا لا تتجاوز نسبة 0,2.

كانت جنازته لحظة قاسية على كل من حضر، فقد لف الحزن البلدة برمتها.

لكن لا حزن يعادل حزن الأمهات!

وأمه كانت شاهدة على جنازته، من سوريا عبر النقل المباشر.

تعطلت الكلمات بين شفاه الشاب الذي يؤمِّن البث المباشر عندما طلبت منه الأم أن تلقي نظرة وداع أخيرة على وجه ابنها.

لكن التابوت كان محكم الإغلاق، ثم إنه لا أحد يعرف وضع الجثة. فلم يكن ممكنا المجازفة بفتح الصندوق.

اعتذر لها بتعلثم.

ما زلت أذكر كلماته. قال: "احنا كلياتنا ولادك".

تلك بعض من قصص شهدتها وما لم أشهده أعظم رزءًا.

الحرب الهجينة.. عندما يصبح اللاجئون وقودا في حرب الأمم!

بالنسبة لبولندا فإن الأمر لا يتعلق بمجرد قضية إنسانية للاجئين يبحثون عن الأمان، بل بمحاولةٍ لاختراق حدودها من قبل جارتها اللدود بيلاروسيا. وبينهما من الصراع قدر ما يجمعهما من الماضي المشترك أو أكبر. فكلتاهما كانت نحو سبعين عاما جزءا من الفضاء الشرقي التابع للاتحاد السوفياتي قبل أن تتفرق بهما السبل فتغير بولندا وجهتها غربا وتنتمي إلى الاتحاد الأوروبي عام 2004، في حين اختارت بيلاروسيا أو من حكمها على الأقل عدم مغادرة الحضن الروسي.

لذلك لم تتردد بولندا لحظة واحدة في مواجهة موجة اللجوء الجديدة.

اتهمت جارتها بيلاروسيا بتدبير هذه الأزمة لابتزاز الاتحاد الأوروبي، بل إن رئيس الوزراء البولندي اتهم بيلاروسيا بشنّ حرب ضد بلاده "ذخيرتها هم اللاجئون". وفي مناسبة أخرى ذهب رئيس الوزراء البولندي إلى حد وصف ما تقوم به بيلاروسيا بأنه "إرهاب دولة".

وفق الرواية البولندية وهي لا تخلو من وجاهة، فإن ألكسندر لوكاشينكو وهو رئيس بيلاروسيا استقدم اللاجئين بإيعاز من الرئيس الروسي فلاديمير بوتين، من خلال منحهم تأشيرات دخول إلى بيلاروسيا ومن ثم تم الدفع بهم إلى الحدود مع بولندا لاستعمالهم ورقة في الصراع الجيواستراتيجي ليس بين البلدين فقط بل بين المعسكرين، روسيا ومعها بيلاروسيا في مواجهة بولندا ومعها الاتحاد الأوروبي.

هكذا ظهر للوجود مصطلح جديد، اسـمه "الحرب الهجينة"، أو "الحرب المختلطـة"، وفقا للتسـمية التي أطلقهـا الاتحاد الأوروبي فـي توصيفه لهذه الأزمة، ويسميها باحثون حروب "المنطقة الرمادية"، وهي حروب تُستعمل فيها كل الوسائل إلا الأسلحة، وإذا استعملت فمن دون تحمل المسؤولية عن ذلك! وفي هذه "الحرب" كان اللاجئون هم الذخيرة والوقود في معركة جيواستراتيجية لا ناقة لهم فيها ولا جمل.

هكـذا جاء الموقف الأوروبي دائنا ومنذرا بعقوبات جديدة ضد ما وصفه متحدث باسم المفوضية بأنه سلوك "الصعاليك"، في إشارة إلى استقدام اللاجئين إلى الحدود البولندية وفقا للاتهامات الأوروبية.

أما بولندا فلمواجهة ما تراه اعتداءً على حدودها، فقد أغلقت حدودها مع بيلاروسـيا، ونشرت 15 ألف جندي على امتداد حدودهما المشتركة التي تمتد على مسافة 400 كيلومتر. وأعلنت أنها لن تسمح لأي طالب لجوء بعبور الحدود إليها.

فـي الواقع جاءت هذه الأزمة مثل هدية لبولندا، فقد تزامنت مع انتقادات شديدة كان يوجهها إليها الاتحاد الأوروبي بشأن التزامها بالمعايير الأوروبية في قضايا كثيرة من بينها اسقلال القضاء. لكن مع هذه الأزمة نُسيت كل الاتهامات الموجهة لوارسو وهبّ الاتحاد الأوربي لإعلان دعمه الكامل لبولندا في مواجهة بيلاروسيا حتى ولو كان الثمن تعريض حياة بضعة آلاف طالب لجوء للخطر.

ولا مفاجأة في ذلك، فحدود بولندا هي نفسـها حدود الاتحاد الأوروبي، ولو فتحت أبوابها لطالبي اللجوء فلن تكون سـوى محطة عبور، فلا يتوقع أن أحدا من اللاجئين يحلم بالعيش في بولندا.

لكـن ما هو مثير للانتباه أن أعداد هـؤلاء اللاجئين لم تكن كبيرة للغاية. ليسـت هناك أرقام دقيقة. فهم يتوزعون علـى امتداد 400 كيلومتر تفصل بين بيلاروسـيا وبولندا. لكن معظم التقديرات تشـير إلى أن عددهم يقارب 4 آلاف في مخيم واحد على الحدود مع بلدة كوزنيكا، بينما تحدثت منظمات دولية عن أن نحو 10 آلاف آخرين وصلوا إلى بيلاروسيا، من دون أن يصلوا إلى الحدود.

ليسوا سواء .. الإنسانية الانتقائية!

لم يكن ممكنا أن أمنع نفسي وأنا في محطة القطار في وارسو من تذكر هذه المشاهد، فهي لا تزال غضة طرية في ذاكرتي، ولا من تذكر مشاهد سابقة في قصص لجوء أخرى كنت شاهدا عليها، أكبرها موجة اللجوء السوري عام 2015. كانت حينها مواقف الدول الأوربية متباينة من قضية اللجوء وهو ما انعكس على سلوك حرس حدود كل دولة على حدة. لكن الرحلة كانت قاسية، بل ومميتة في كثير من الأحيان.

أشد الدول فظاظة في مواجهة اللاجئين السوريين لحظتها كانت المجر. كان رئيس وزرائها فيكتور أوربان قد اكتشف الوصفة السحرية لتعزيز شعبيته وضمان نجاحه في انتخابات مقبلة: تقديم نفسه حاميا للبلد من "الغزاة الجدد" ومحافظا على نقاء القيم الأوروبية.

كانت "ميزته" أنه يقول الأشياء كما يعتقدها من دون أي محاولة لتلطيفها. لم يكن يبحث عن كلمات أفضل لقول الأشياء السيئة. من ذلك قوله مرة لوسائل الإعلام "نحب الكباب ولكن لدينا ما يكفي منه في بلدنا". في إشارة إلى أن اللاجئين السوريين سيحترفون بيع الكباب.

وهو موقف غريب لأنه لا أحد من اللاجئين يرغب في البقاء في المجر. بل كانت وجهة معظمهم ألمانيا التي فتحت لهم أبوابها، وعبورهم للمجر إنما كان اضطرارا أملته الجغرافيا. وبالفعل كان موقفه عصيًّا على التفسير! فهو يمنع اللاجئين من الدخول بعد رحلة مميتة من بلدهم سوريا إلى تركيا ومن ثم ركبوا البحر إلى اليونان، ومن نجا منهم عبرَ الحدود اليونانية إلى صربيا فمقدونيا ثم المجر أملا في الانتقال إلى فيينا ومنها إلى ألمانيا.

كان يمنع اللاجئين من الدخول باستعمال القوة، ومن دخل منهم يمنع من الخروج، حتى حوَّل البلد إلى سجن كبير. كانت المجر أسوأ محطة في رحلة اللجوء. وأسوأ ما فيها بالنسبة للاجئين هو ما يسمى "البصمة". كانت كلمة مرعبة للاجئين الذين أصبحوا خبراء في قوانين اللجوء مع طول رحلتهم واشتداد أزمتهم.

قصة "البصمة" تعود إلى اتفاقية دبلن التي تم توقيعها في دبلن بأيرلندا عام

1990 ودخلت التنفيذ عام 1997. وتقضي بأن على طالب اللجوء أن يقدِّم لجوءه في أول بلد آمن يصل إليه، وأول ما يتم الإمســاك باللاجئين تؤخذ بصماتهم. وهــذا يعني في القانــون الدولي أنه لا يحق لهم أن يطلبوا اللجوء في بلد آخر غير ذلك الذي أخذ بصماتهم، وحتى إن طلبوا اللجوء فسيرفض طلبهم ويعادوا إلى هذا البلد.

المفارقة أن المجر التي رفعت شــعار "صفر لاجئ" كانت ترغم اللاجئين على تســجيل بصماتهم، بما يعني تحولها بشــكل تلقائي إلى بلد الاستقبال في وقت لا ترغب هي في استقبالهم ولا هم يرغبون في البقاء فيها.

كان الأمر أشــبه ما يكون بعقاب جماعي تســلطه على اللاجئين لا هدف له ســوى تحويــل رحلتهم إلى قطعة من عذاب لعــل آخرين يرعوون فيتوقف "الزحف".

كنت شــاهدا على نســاء وأطفال يبيتون في العراء فــي محطة القطار في بودابست، لا لشيء سوى لأن رجلا واحدا هو فيكتور أوربان أراد ذلك خلافا لموقف دول أخرى في الاتحاد الأوروبي أعلنت استعدادها لاستقبال اللاجئين كما هو الحال بالنسبة لألمانيا.

التقيت مرة رئيس البرلمان المجري وحاورته بشــأن موقف بلده من قضية اللاجئيــن! فكان جوابه صادما. قال لي: لماذا لا تســتقبلون أنتم العرب هؤلاء اللاجئين. ألستم أولى بهم وبينكم دول غنية؟ لِمَ نستقبلهم نحن؟

كان جوابه أشبه ما يكون بسوط جَلَد به ظهر عروبتي وانتمائي!

في النهاية لقد قال حقا حتى وإن أراد به باطلا.

كانت حجتي ضعيفة. فعم عســاي أحدثــه؟ لم أجد غير أن أقول له: إن اللاجئيــن عندما فروا اختاروا أوروبا وهذا من حقهم وليس من شــأن أحد أن يفرض على اللاجئ وجهته!

كنت أتأمل وأقول في قرارة نفســي إن مأســاة اللاجئين إنما هي انعكاس لمسأســاتنا الجماعية. مأســاة أمة مشــتتة ممزقة غير قادرة على استقبال بضعة ملايين من اللاجئين في شروط كريمة!

معبر ميديكا.. سوق "الإنسانية"

استحضرت هذه المشاهد وأنا في محطة القطار في وارسو التي كانت تستقبل اللاجئين الواصلين إلى العاصمة بعد أن قطعوا رحلة قاسية استغرقت أياما هربا من مدنهم التي تقصف في أوكرانيا.

في اليوم التالي كان لابد من التحرك فجرا إلى المعبر الحدودي ميديكا. وصلت إلى هناك منتصف النهار بعد ست ساعات من السياقة. ومباشرة شرعنا في العمل.

كان المعبر الحدودي يضج بالناس: هناك لاجئون، ومتطوعون، وصحافيون، وعناصر أمن، ومخبرون من كل أنحاء الدنيا، وآخرون ممن لا نعرفهم... الله وحده يعلم بما يدبرون!

كان المشهد شبيها بسوق، كلٌّ يعرض فيها بضاعته.

مئات من المتطوعين من بولندا ومختلف أنحاء العالم، ونشطاء في جمعيات مختلفة بعضها دولي وبعضها محلي. كلها تعرض المساعدة. ماء وأغذية وأغطية ولعب للأطفال وشرائح اتصالات، بل ثمة أيضا "مهرج" بأنفه الأحمر الشبيه بحبة طماطم وشعره الأصفر يلاعب الأطفال ويسليهم وينتزع منهم الضحكات ومن أمهاتهم الابتسامات.

كان الأمر شبيها باحتفاء جماعي باللاجئين الذين كانوا يجدون في انتظارهم حافلات تنقلهم إلى مركز إيواء جماعي مؤقت في بلدة تيسكو التي لا تبعد عن المعبر سوى بضعة كيلومترات، وهو عبارة عن مركز تجاري أعيدت تهيئته ليصبح ملجأ يقضي فيه اللاجئون أيامهم الأولى ريثما يدبرون أمرهم أو يتم تدبير مستقر دائم لهم.

عندما وصلت إلى هناك بداية شهر مارس/آذار كانت أعداد اللاجئين الواصلين تقارب 30 ألفا كل يوم، وكان مجموع اللاجئين الذين دخلوا بولندا قد قارب ثلاثة ملايين، وقد وصل فيما بعد إلى ثلاثة ملايين ونصف.

كان ذلك يعني زيادة سكانية عامة تتجاوز 10٪، أما سكان العاصمة وارسو فقد زادت نسبتهم بنحو 18٪. لكن ذلك لم يفتّ في عضد الحكومة البولندية ولم يؤدّ إلى موجة عداء ضد الأوكرانيين.

فالقرار الرسـمي مدعوما بالموقف الشـعبي كان بمنح اللاجئين الحقوق نفسـها التي يتمتع بها البولنديون في العمل والصحة والتعليم وغير ذلك. كان يكفي أن يحصل اللاجئ على رقم تسجيل خاص لتفتح بعدها أمامه كل الأبواب لا فرق بينه وبين بولندي، وقد يكون له امتياز التعاطف الذي خلفته الحرب.

قصص اللجوء الحزينة: مهما كانت بلدان الدنيا جميلة فبلدك أجمل!

لكن مهما يكن الترحيب، فيوميات اللجوء قاسية. ولا يعرف معنى اللجوء إلا مـن كابـده. فترك الديار كرهًا تحفـه المعاناة مهما فُـرش طريقه بعبارات الترحيب.

ألتقي اللاجئة ناتانيا. تجاوزت الأربعين. جاءت هي وابناها ورابعهم كلبهم. وحـده الأب بقي فـي أوكرانيا. فقانون الحرب يفـرض على كل من كان بين الثامنة عشـرة والسـتين من عمره أن يبقى في البلد استعدادًا لحمل السلاح إذا دُعي إلى ذلك.

لا تعرف ناتانيا أتفرح لنجاتها أم تحزن لما ينتظرها؟

أسـألها عن رحلة اللجوء، فترد: الحال كما ترى. لم نكن نتصور أن يأتي علينا يوم نغادر فيه ديارنا.

لا خطة لها لليوم التالي، ولا تعرف أين ستولي وجهها.

صحيـح أنها لن تبيت في العـراء كما حصل للاجئين قبلها. ولن تتعرض لها الشـرطة بالغاز المسـيل للدموع، ولن تواجه خطر الغرق في البحر أو التيه في غابة لا تعرف للخروج منها سـبيلا، لكن لا مفاضلة في المآسـي! فاللجوء لجوء! المستقبل أمامها يبدو غير واضح والأسئلة كثيرة بدون أجوبة.

تقول لي: مهما كانت بلدان الدنيا جميلة فبلدك أجمل!

بيتك، ذكرياتك وتفاصيل صغيرة لا تعرفها إلا أنت وأبناؤك !

هو ذاك طريق اللجوء. محفوف بالألم ومضمخ أحيانا بالدماء.

تغادر ناتاليا إلى مركز لجوء مؤقت. وأعود إلى ما كنت فيه.

يواصـل اللاجئـون تدفقهم بوتيرة تتغير حسـب سـاعات النهار ووصول القطـارات والحافلات القادمة من الجانب الآخر من الحدود. لكن متى وصلوا

في أي وقت من ليل أو نهار فثمة من يقدم لهم المساعدة.

الاتجار بالمأساة.. مساعدات بطعم السياسة!

أتأمل وجوه المتطوعين، وأتساءل ما الذي يأتي بهؤلاء ليقضوا أيامًا في ظروف قاسية ليقدموا مساعدات لأشخاص لا يعرفونهم؟!

لا يتعلق الأمر بتفتيش النيات وإنما فقط بقراءة لأسماء الجمعيات وشعاراتها.

أول ما يَستقبلُ اللاجئين في بوابة المعبر من الجانب البولندي علمُ إسرائيل مرفوعا على خيمة كبيرة عليها شعار الوكالة اليهودية.

نعم هي ذاتها الوكالة التي كان لها دور كبير في استقطاب يهود العالم إلى أرض فلسطين قبل الاحتلال. ما زالت تقوم بالدور نفسه للغايات ذاتها. إقناع اليهود عبر العالم بالقدوم إلى "أرض الميعاد" في سياق حرب ديموغرافية ضد الفلسطينيين تقول كل المؤشرات إن الانتصار فيها غير مضمون. يصعب العبور دون الانتباه للعلم الإسرائيلي. فحجمه يقارب حجم علم بولندا ذاته في المعبر.

في مدخل الخيمة وُضِعَت طاولة عريضة رُصَّت عليها مواد غذائية ومنشورات بالعبرية والإنجليزية، وداخلها وحواليها ما يقارب عشرة أشخاص، نساء ورجالا، يستقبلون اللاجئين، ويقدمون لهم المساعدة ويتحدثون إلى بعضهم مطولا.

لا يحتاج الأمر إلى تخمين كبير. فالأمر يتعلق بمحاولة معلنة لاستغلال ظروف الحرب لاستقطاب اليهود الأوكرانيين للانتقال إلى إسرائيل ليتحولوا بعد استقرارهم إلى مستوطنين يشيدون بيوتهم على أراضي الفلسطينيين.

لكن العرض ليس مفتوحا لكل اللاجئين؛ إذ يُشترَط أن يكون اللاجئ الأوكراني له جد يهودي واحد على الأقل، ومن تحقق فيه هذا الشرط يرحب به وبكل أقاربه. يندرج ذلك ضمن أسس الأيديولوجيا الصهيونية والقانون الإسرائيلي الذي يمنح لأي يهودي في العالم الحق في الهجرة إلى إسرائيل بموجب "قانون العودة".

لذلك بمجرد اندلاع الحرب، وضعت الحكومة الإسرائيلية بتنسيق مع الوكالة اليهودية "خطة طوارئ" لاستقدام أكثر من 200 ألف يهودي من أوكرانيا. بدا ذلك "حلما" بعيد المنال.

فعدد اللاجئين الذين اختاروا إسرائيل لم يصل إلى عشر هذا الرقم. وبعد اندلاع الحرب كان عددهم وفقا لأرقام رسمية يتجاوز بقليل 12 ألفا، ليتبين أن 8000 منهم لم يكونوا "مؤهلين" للهجرة إلى إسرائيل، وهو ما يعني بصيغة أخرى أن ليس لهم أصول يهودية.

لم تتردد إسرائيل في إعادة اللاجئين الذين تبين أنهم غير يهود إلى البلدان التي جاؤوا منها. وعندما اشتد الضغط السياسي والدبلوماسي عليها قررت قبول خمسة آلاف لاجئ لكن بشروط من بينها إيداع مبالغ مالية كبيرة لضمان مغادرتهم بعد الحرب، ودون تمكينهم من العمل أو التأمين الصحي أو إرسال أبنائهم إلى المدارس. بدا الأمر صارخًا في تناقضه مع كل القيم الإنسانية والمواثيق الدولية المتعلقة باللاجئين بما فيها تلك التي وقعت عليها إسرائيل نفسها.

في المعبر، لم تكن الوكالة اليهودية المؤسسة الوحيدة التي تعمل لصالح اللاجئين اليهود، فقد رَصدتُ ثلاث جمعيات على الأقل إحداها قادمة من الولايات المتحدة، وأخرى من المكسيك وكلها جاءت تحت يافطة تقديم العون الإنساني للاجئين، لكنها كانت حريصة على أن تختص اليهود دون غيرهم، خاصة في موضوع استقبال اللاجئين.

متطوعون من بعيد.. بعيدا عن السياسة قريبا من الإنسانية

لكن ليس كل العاملين في المعبر من ذوي الحسابات السياسية.

التقيت آنا. وهي شابة ألمانية في بداية عقدها الثالث. كانت تقف على بوابة مركز إيواء اللاجئين في بلدة تيسكو القريبة من المعبر وبيدها لافتة صغيرة مكتوب عليها بخط اليد "ألمانيا... خمسة أفراد".

تعني هذه العبارة أنها ترغب في حمل خمسة أفراد من اللاجئين للعيش معها في ألمانيا. علمت منها أنها تملك شقة تتسع لاستضافة خمسة أشخاص ستكون هي سادستهم. تقول لي إن ما يحدث في أوكرانيا يؤرقها وإنها ترغب في أن تساهم بما تستطيع في التخفيف من معاناة هؤلاء اللاجئين.

بعد نقاش أسرَّت لي بأن أمها روسية، وأنها بذلك تحمل الجنسيتين الألمانية والروسية، وقد وجدت نفسها ممزقة بين بلدي أمها وأبيها. ولعلها وجدت في استقبال لاجئين طريقتها لمواجهة هذا التمزق.

لم تكن آنا لوحدها التي تحمل لافتة مثل هذه.

عشـرات اللافتات الشـبيهة يرفعها أشـخاص من أعمار مختلفة، فرادى وجماعات... وحدها أسماء البلدان وأعداد الأفراد تختلف: فرنسا 4 أشخاص، إسبانيا 3 أشخاص، إيطاليا 6 أشخاص، سويسرا 5 أشخاص..

مـن الوهلة الأولى قد يُخيَّل إلى المرء أنه يقف في محطة حافلات لكثرة اللافتـات المرفوعة والوجهات المعروضة! فلم تخل السـاحة المحاذية لمركز الإيـواء سـاعة من ليل أو نهار من المتطوعيـن الراغبين في نقل اللاجئين إلى بلدانهم.

الاتجار بالبشر.. ذئاب بلباس "متطوعين"

اسـتمر الوضع على هذا الحال بضعة أيام. لكن ما كان له أن يسـتمر أكثر من ذلك.

بعد أسبوع، عُلِّقت لافتة كبيرة على مدخل مركز اللجوء "تيسكو" كُتب عليها "يمنع حمل اللاجئين دون ترخيص".

التقيـت بجيرار، جاوز السـتين بقليل. ناشـط فرنسـي فـي جمعية تعنى باللاجئين. كان غاضبا جدا، فقد سبق أن نقل لاجئين إلى فرنسا مرتين، وعندما عاد هذه المرة وجد القواعد قد تغيرت. لم يعد بإمكانه الدخول إلى مراكز الإيواء ولا رَفْع لافتة عليها اسم البلد وعدد الأفراد وانتظار اللاجئين.

فالقواعـد الجديدة قضت بـأن نقل اللاجئين يجب أن يتم باسـم منظمة وليس باسـم فرد، وأن من تطوع خيرا فهو مرحب به شـريطة أن يحصل على ترخيص بذلك، ولا يتم الأمر دون تسـجيل نفسـه ومن سيرافقه من اللاجئين، وكل المعطيات ترسل إلى شرطة البلد المضيف.

لم يأت القرار اعتباطا. فقد حذَّرت تقارير أمنية من أن شـبكات للاتجار بالبشـر قد تندسّ بين المتطوعين بحثًا عن ضحايا وسـط اللاجئين، خاصة أن معظمهم من النساء والأطفال.

التقيـت المتحدثة باسـم الشـرطة البولندية، أكدت لـي أن هناك مخاطر حقيقة من الاتجار بالبشر لكنها نفت حدوث أي حالة موثقة من قبل، في وقت تحدثت الجمعيات الحقوقية الناشطة في مجال الدفاع عن اللاجئين عن حالات

لأشخاص يثيرون الريبة.

تفسر كارولينا ويرزبينسكا، من منظمة "هومو فيبر" لحقوق الإنسان ومقرها لوبليــن ببولندا، الأمر بالقول إنه قد يكون "90٪ من الرجال الحاملين للافتات ذوي نيات حســنة. لكن ما الذي يمنع تســرب مجرمين وســط هذه الحشود.. باسم العمل الإنساني؟".

وهنا تتواتر روايات عن رجال اشــترطوا نقل "لاجئات" فقط دون غيرهم من اللاجئين.

دفعت هذه المخاوف السلطات البولندية إلى تبني إجراءات قانونية جديدة، إذ تم رفع الحد الأدنى لعقوبة الســجن جراء الاتجار بالبشــر من ثلاث سنوات إلى عشر، كما رفعت عقوبة الاتجار بالجنس لدى الأطفال من 10 إلى 25 سنة.

أما دوريات الشــرطة فغدت جزءا اعتياديا من المشــهد العام في المعبر أو قريبا من مقر إيواء اللاجئين في تيســكو. تراقب كل قادم أو مغادر، حذرا من تسرب مجرم أو اندساس غادر.

مجانين التلفزيون

مع توالي الأيام، تتسرب الرتابة إلى المعبر. فالمشهد ذاته يتكرر. لاجئون يواصلــون تدفقهم بوتيــرة تزيد وتنقص ارتباطًا باحتــدام المعارك في أوكرانيا، ومنظمات إنسانية تقدم المساعدة في بوابة المعبر، وحافلات تنتظر اكتمال العدد لنقلهم إلى مقر إيواء مؤقت، وصحافيون من كل أنحاء العالم ينصبون كاميراتهم بحثًا عن قصص جيدة فقدت جدتها بقوة التكرار.

يحــاول الصحافيون اســتجواب بعض اللاجئين وهي مهمة ليســت دائما يسيرة. فاللاجئون في حالة تعب ونصب ومعظمهم لا يتحدثون غير الأوكرانية. وكثير منهم لا يرغبون في رؤية وجوههم تتصدر شاشات التلفزة.

في رحلة بحثهم عن قصص جديدة وجيدة، قد يجد الصحافيون أنفسهم في مواجهــة "مجانين التلفزيون"، أولئك الذين يعرضون خدماتهم على الصحافيين وهم مســتعدون للحديث أمام كل الميكرفونات. وفي ســبيل ذلك قد يقترحون قصة ظاهرها مثير لاهتمام الصحافيين، وهنا يجب الحذر، فالصحافيون الواقعون تحت ضغط نشرات الأخبار ومطالب الجدة والجودة قد يستسلمون لهذا الإغراء.

كانت الســاعة تشــير إلى العاشرة صباحا عندما رأيت صحافيا في مؤسسة تلفزيونة عريقة يصور مع من ســأعرف فيما بعد أن اســمه جيمس. شاب أشقر في العشــرينيات بملامح صارمة وغاضبة وملابس عســكرية وبحقيبة ظهر كبيرة يتحدث إلى الصحافيين بحماسة وغضب.

أثارني الموقف، فتحدثت إلى الشاب بعد نهاية مقابلته الصحافية، فعلمت منــه أنه ذاهب إلى القتال فــي أوكرانيا، وأنه لا يقبل بأن يبقى في المعبر ينتظر اللاجئين في حين يموت الناس على الجانب الآخر من الحدود.

ودار الحديث التالي:

- هل تواصلت مع جهة ما للالتحاق بالمتطوعين؟
- لا .. ليس بعد..
- هل لديك وجهة محددة؟
- سأعبر الحدود ومن ثم أرى...

كان واضحا من خلال إجاباته أن قصته غير متماســكة، خاصة أني أعرف أن مسألة المتطوعين تدار بشكل مختلف من قِبَل وحدة عسكرية خاصة وليست بهذه الطريقة الاستعراضية أمام الكاميرات.

بعد انتهاء مقابلتي معه. تابعته خفية لأرى ما إذا كان سيعبر الحدود فعلا.

وكما توقعت. اختفى بين الحشــود وجلس يحتسي مشروبا غازيا. قبل أن يعود أدراجه.

أما المعبر فقد بقي على حاله... لكن كل شيء فيه كان يشير إلى أن رحلة اللجوء هذه قد تكون هي الأقل مأساوية في تاريخ الهجرات الكبرى. ليس تقليلا من مأساة من هجروا أرضهم... ولكن الأشياء بأضدادها تُعرف.

قصة الرقم 2923

سامر يوسف



الطريق إلى أوكرانيا

كان الطقس معتدلا في موسكو على غير المعتاد، مع قطرات مطر متناثرة على زجاج السيارة، تزيدنا حماسا يطغى على ما ألمَّ بنا من قلق وخوف.. السيارة ذاتها سوف تقلّنا إلى الحدود مع أوكرانيا في ساعة مبكرة من يوم الثلاثاء، السابعَ عشَر من مايو/ أيار ألفين واثنين وعشرين.

لم أفكر طوال الطريق الذي استغرق أكثر من ثلاث عشرة ساعة للوصول إلى مدينة روستوف الروسية الحدودية مع أرض الحرب، فيما سوى تفاصيل المشهد والصورة المتوقعة رؤيتها في يومي الأول هناك، وأنا أعلم أن الجيش الروسي سيرافقنا في قافلة تضم عشرات الصحفيين إلى الأراضي الأوكرانية، أو "جمهورية دونيتسك الشعبية" كما يحلو لحلفاء موسكو وأبنائها أن يسموها، وبعد ذلك لا نعلم أين ستكون وجهتنا، لكنّ الجميع يذكّر الجميع بإرشادات السلامة التي يفرضها الجيش الروسي على من يرافقه من الصحفيين.

وصلنا قرابة العاشرة مساءً، وبقينا على استعداد في انتظار انطلاق الحافلة. تحرّكت أخيرًا في الثانية فجرًا من اليوم التالي (الأربعاء الثامنَ عشَر من مايو/ أيار) بعد أن تمكّن التعب منا، وكنت أصارع غمضة عيني كي لا تغلبني، فأشاهد كلّ تفاصيل الطريق رغم أن ظلمته حجبت عنا صورًا كثيرة، باستثناء إنارة السيارات المحدودة جدًّا التي كانت تعطيني شعورًا بأن الطريق آمن هنا، لأننا ما زلنا داخل الأراضي الروسية.

ما بعد الحدود

الساعة السادسة فجرًا من اليوم نفسه، دخلنا الأراضي الأوكرانية من الجانب الذي تسيطر عليه القوات الروسية والانفصاليون الموالون لها، إنها أراضي إقليم دونباس، أو "جمهورية دونيتسك الشعبية" كما أصبحت تعرف لدى الروس. إجراءات المعبر الحدودي انتهت بعد ساعة ونيّف، وما إن دخلنا الأراضي الأوكرانية حتى فوجئنا بجندي روسي يدخل الباص الذي يُقلنا إلى هناك، كانت نظراته حادة جدًّا.. هذا ما رأيته منه فقط، فاللباس العسكري

ومعدّاته الثقيلة حجبته عنا، قال لنا "عليكم ارتداء الستر الواقية والخوذات من الآن" وأعطانا مجموعة نصائح كان أبسطها مرعبًا لصحفي يدخل منطقة حرب لأول مرة منذ سنوات، فقد غطيت الحرب بين القوات العراقية المدعومة أمريكيًّا وتنظيم الدولة في أواسط عام ألفين وسبعةَ عشرَ، ومع ذلك شعرت بالخوف وتيقنت أن الأمر ليس يسيرا، وأن حماستي التي رافقتني من موسكو قبل أربع وعشرين ساعة، يجب الحد منها سريعا وتحجيمها، حتى نتعرفَ على الأوضاع في هذه المنطقة.

مرّت ساعتان قبل أن نصل إلى منطقة بدت فيها مشاهد الدمار التي تركتها الآلة العسكرية بالغة جدًّا. ولأن الإجراءات الأمنية محكمة أيضًا، لم أعرف -ومثلي كثير من الصحفيين الذين لم يزوروا أوكرانيا بعد بدء الحرب- أين نحن! وبعد حديث سريع داخل باص الصحفيين الممتلئ بنا وبمعداتنا الثقيلة، عرفت أننا في ماريوبول، المدينة المنكوبة والمدمرة والمنهارة، وكل شيء يعكس أثر الحرب ودمارها الذي يبدو جليًّا في هذه المدينة، حتى قبل النزول وقبل أن تطأ أقدامنا أراضيها، كنا نشاهد تلك الصور الدامية من خلف زجاج الباص المخدّش أحيانا، والمبتل بقطرات مطر حالت بين أعيننا والميدان، لتخلق صورة ضبابية.

أحاول خطف بعض التفاصيل بعيني، أول ما فكرت فيه وبدأت أردده مع زميلتي المصورة هدى رحمة حينًا، وبيني وبين نفسي حينًا آخر: "أين الناس؟ أين المدنيون؟ هل لا يزال أحد هنا؟ كيف يعيش من بقوا أحياءً هنا؟ أسئلة أخرى كثيرة كانت تدور في ذهني لم أجد لها إجابات، غير أن السؤال الأصعب الذي جال بخاطري هو: هل هناك من لديه الحق في شن هذه الحرب؟ وهذا أحد الأسئلة التي لم أجد لها إجابة، ولا أعتقد أنني سأجدها يوما، فما عرفناه دائما أن لا فائز في الحرب، وإن انتصر أحد الأطراف المتنازعة.

لا أعرف أين نتجه، أعرف فقط أننا الآن في منطقة حرب تسيطر عليها القوات الروسية والموالون لها بعد أن كانت أراضي أوكرانية، بغض النظر عن كل التفاصيل الأخرى وما تعرّضت له هذه المناطق الناطقة بالروسية منذ سنوات، والخلاف القومي بينها وبين القيادة الأوكرانية الحالية كما يُشاع.

توقفت الحافلة، وفتحت أبوابها.. صار وقت اللقاء مع ميدان لم أكن واثقا في أنني سأجد فيه مكانا أقف فيه بعيدا عن قذيفة منفلقة أو شظايا مركبة استهدفها صاروخ أو سقط فوقها خطأً، فتناثرت أجزاؤها في المكان، أو شجرة قُتلت كما قتل البشر هنا.. التساؤلات مجددا تقتحم رأسي ولا إجابات بعد، لا شيء سيحسم الأمر سوى التسليم والنزول والوقوف بقلب صحفي تعرّض لما تعرّض له خلال سنوات عمله الخمس عشرة.

لم يكن الموقف سهلا، كل المشاهد كانت دمارا، قادنا الجيش الروسي إلى أحد المصانع في مدينة ماريوبول، وكل ما أحاط به كان مدمرا، قلت لنفسي تمهّل، فكّر قليلا قبل أن يقودك حماسك إلى الترويج أو تبني قصة مثلومة التفاصيل أو منقولة من جانب دون آخر، اكتفيت بتصوير الدمار وكنت أبحث عن الأهم، عن المدنيين وما حلّ بهم، قال لي أحد المكلفين بالتواصل مع الصحفيين في الجيش الروسي بلكنة عربية ثقيلة -تعلمها من خدمته في سوريا قبل سنوات- إنه لا يوجد مدنيون في هذه المنطقة وإننا سنراهم لاحقا.

في كل مكان ذهبنا إليه خلال ذلك اليوم الطويل، لم نرَ مدنيين إلا ما ندر، وأخيرا شاهدت عددا من المارة في استراحة زرنا خلالها حديقة الحيوانات في ماريوبول، حاولت التحدث إليهم، على قلّتهم لم يُجبني أكثرهم. رجل كبير في السن فقط قال لي "الدمار طال كل شيء". تبادرت إلى ذهني، ممّا رأيته وسمعته خلال ساعاتي الأولى في أوكرانيا من جانب الانفصاليين، صور من بلدي العراق خلال الحرب بين القوات العراقية وتنظيم الدولة في الموصل، تذكرت ما لم يغب عن مخيلتي أصلا، بل أنعشه في ذاكرتي ذلك الرجلُ المسن حين قال "الدمار طال كل شيء".

مرت الساعات سريعة، وانتهينا من اليوم الأول دون إنجاز محدد، جمعنا صورًا فقط حينها، وبقيت أنتظر معرفة ما لم أعرفه بعد وهو كثير. على عكس ما كنت أتوقعه قبل أيام، وأنا أتابع وأقرأ كل شيء عن المنطقة التي سأزورها، عن منطقة حرب ستكون آثارها على الأقل مثل كل حرب، جاء ما شاهدته بعيني أضعاف ما توقعته، تعلمت من هنا ألا أتوقع شيئا قبل أن أراه، وقبل أن أغوص في تفاصيل مشهد أو صورة على الشاشة، فالميدان يختلف وسيختلف

دائمـــا، وعلـــيَّ فقط أن أكون جاهزا لأي تفصيل فاتني، بقدر ما كان واقعا على كل صحفي التعايش مع متغيراته في الميدان، ليكتســـب عمله قيمة نوعية تميزه عن غيره.

انتهـــى اليـــوم بعد ثماني ســـاعات عمل وترقب واكتشـــاف، وتوجهنا إلى دونيتســـك، تحديدا إلـــى مركز المقاطعة، وصلنا إلى هنـــاك، وكان في انتظارنا زملاؤنا المرابطون في المدينة منذ شهور، شعرت بأنني نجوت من شيء ما لا أعرفه حتى الآن، وبعد قســـط قليل من الراحة اجتمعنا وعرفت من زميلي أمين درغامي بعض التفاصيل بشـــأن الحرب والأخبار الكثيرة المتواترة، والأصوات أيضـــا.. نعم أصوات القصف في الليل، ذاك الإيقاع الذي يقطع صمت المدينة في ســـاعات حظر التجوال التي تبدأ في الحادية عشـــرة مساءً، قال لي أمين هذا أمر طبيعي، لكن لا تخف، فبعض هذه الأصوات لقذائف أو صواريخ تنطلق من هنا، بعد ثوانٍ سمعنا صوتا جديدا، فقال لي "هذا صوت صاروخ نزل هنا"! انتهى الليـــل منهيًا معـــه يوما منهكا صعبا، انقضى بين الطرق ودمار الحرب وأصوات القصف وصوت رجل مسنّ يقول "الدمار طال كل شيء".

خيرسون.. المدينة المجهولة

ســـاعات قليلة من الراحة انطلقنا بعدها في تمام الخامســـة من صباح يوم الخميس التاســـع عشـــر من مايو/ أيار إلى خيرســـون، المقاطعة الأوكرانية التي ســـيطرت عليها القوات الروســـية دون قتال حقيقي، وأعني هنا مشاهد القصف وآثـــار الحرب التي بدت واضحة عند مدخل المدينة فقط، أما مرافقها الأخرى في الداخل فكانت لا تزال على هيئتها، وهذا ما شاهدته عند دخولنا بعد إحدى عشرة ساعة استغرقناها في الطريق إلى هناك برفقة الجيش الروسي.

صحيح أن شكل المدينة يبدو طبيعيا، لكنه دون ملامح أو ألوان، لأن نصف سكانها غادروها بعد سيطرة الجيش الروسي وتنصيب حاكم موال لموسكو على المقاطعة.

أُخذت منا هواتفنا المحمولة قبل الدخول لدواع أمنية، لكنّنا اكتشـــفنا فيما بعـــد أننا ســـنبقى من دونها في الليلة الأولى (عرفـــت لاحقا أن الجو العام في المقاطعـــة لا يرغـــب في وجود الروس وكل من يأتي معهم)، ســـمعنا أصوات

القصف في الليل وعرفت أيضا أن السيطرة الروسية هناك لم تكن مكتملة، بل كانت هشّة إلى حد ما.

خرجنــا نبحث في اليوم التالــي عن الناس، أغلبهم رفضوا الحديث، لكن مــا عرفناه مــن بعضهم كان دليلا على عدم الرضى عن الوضع الحالي للمدينة وضواحيها، وفسّر ذلك لي سريعا لماذا تبدو سيطرة القوات الروسية هشّة، كان علــيَّ أن أنقــل ما أراه وما عرفته بكل حيادية، حتى وإن كنّا هناك برفقة الجبهة الثانية؛ الجبهة التي لا يرغب كثيرون في وجودها في خيرســون. انتهزت فرصة ذهاب كل القنوات التلفزيونية التي كانت برفقة القافلة الصحفية إلى سيفاستوبول في شــبه جزيرة القرم، وعودتنا برفقة صحفيَّيْن فقط يكتبان ويصوران لحسابهما الخاص، فأنجزت سريعا ما تم تصويره، وكان يطغى عليه عنوان "المدينة الشبح والإنسان"، وتمكنّا بذلك من بثِّه قبل غيرنا من القنوات.

عدنا في الحادي والعشــرين من مايو/أيار إلى دونيتســك، وكانت الطريق طويلة كذلك. لم أكن راضيًا عن العمل في خيرسون، لأن نصف وقت المهمة، وربما أكثر، ضاع في التنقل بين الطرق، لكنّ عزائي كان في المحطة الرئيســية التالية التي استمرت ثلاثة وعشرين يوما، إنها دونيتسك.

دونيتسك

استلمنا المهمة من الفريق السابق، وبدأنا العمل في دونيتسك حيث مركزُ المدينة.

كنا نســمع أصوات القذائف والصواريخ بشــكل يومي في أوقات محددة من الليل، وكنا نفكر دائما في أننا بحلول الصباح ســننتقل إلى أماكن القصف لتصويرها، وهي عادة ما تكون بعيدة أو في مكان يعتبر على خط المواجهة بين القوات الروسية والموالين لها من جانب، والقوات الأوكرانية من جانب آخر.

رغم ذلك زرنا أحد تلك الأحياء التي تتعرَّض للقصف بشكل مستمر حسب ما أخبرني به السائق "نكيتا"؛ ذلك الشاب الذي لم يعد يعرف هل هو أوكراني أم روسي أم موالٍ وانفصالي في الوقت نفسه!

"كويبيشفسكي" احتجت إلى نصف ساعة تقريبا حتى حفظتها، إنها المنطقة التــي تتعــرّض دائما للقصف من الجانب الأوكراني، المفارقة أنني رأيت الناس

هناك وهم يعيشـــون حياتهم بشـــكل هادئ، رغم أن قذيفتين سقطتا على الحي السـكني بهـذه المنطقة وتسـبّبتا في قتل مدني وجرح آخريـن وإلحاق أضرار بالممتلكات الخاصة، ورغم ذلك لم يكن هناك ردٌّ مبالغ فيه، كثير من الأهالي نظروا إلينا دون تعليق، بل إنَّ هناك من فوجئ بزيِّنا الصحفي مع السترة الواقية والخـوذة.. طلبت مسـاعدة الزملاء للحديث إلى الأهالـي ففوجئت بأن هناك مـن يعتـرض على هذه الحرب، وهو ما لم أكن أتوقعه، على اعتبار أن العنوان الروسـي لتلك الحرب الذي أعلنته موسـكو هو "العمليات العسكرية الخاصة لحماية شـعب دونباس"، أي أنها شـنت الحرب لحماية هؤلاء الناس، وهؤلاء هم شعب دونباس، وليسوا كلّهم راضين عن الحرب، وهناك من يعتقد أن تلك "العمليات العسـكرية الخاصة" كان يتحتّمُ عليها أن تبدأ من هنا؛ في إشارة إلى المناطق التي تتعرّض لقصف مسـتمر، يقول كثيرون إنه متواصل منذ عام ألفين وأربعةَ عشَر.

واجبي الصحفي يقتضِي أن أنقل هذه المواقف؛ فالإنسان هو محور القصة الخبرية دائما، ولأنني لم أُرد التحدث بلسـانهم منحتهم الفرصة للحديث أمامَ الكاميرا، ورغم أن موقفهم تغيَّر قليلا، فإنهم في المجمل ظلوا ينتقدون تفاصيلَ هذه "العمليات العسكرية الخاصة".

أخبرنـي زملاء ممّن سـبقوني إلى هنا عن هـذه التفاصيل غير أني حينما استمعت إليها من أصحاب الشأن كان وقعها أكبر.

هذا الأمر أوجد لديّ هاجسـا للبحث عن قصص إنسـانية تعبِّر عن واقع الحال وأثر الحرب وحكايات الناس؛ ولأن أنسب وجهة لكل هذا هي ماريوبول فقـد كان عليَّ أن أعـود إليها لكني هذه المرَّة أردت دخولها بعيدا عن التقييد، فرغبت في زيارتها وحدي، ضمن فريق صحفي خاص بالجزيرة لا غير.

تقرير الصدفة

هـا هو اليوم الثانـي والثالث والرابع يمر... بدأت الأيام تتشـابه واعتدنا أصـوات القذائـف، ولمَ لا ونحن في منطقة حـرب. ورغم أننا عند أهم وأكبر خط مواجهة بين المتحاربين فإن الروتين بدأ يتسلل إلينا.

لا نسـتطيع التحرك إلى ماريوبول الآن لأننا نحتاج إلى بعض الموافقات،

مــرَّة مــن الأهالي لتوثيق قصصهم، فهم لم يعودوا يصدِّقون شــيئا من القادمين مــن الخارج أو الأجانب لكثرة التجــارب التي مروا بها، ومرة أخرى موافقات رســمية نحتاج إليها للحديث مع مســؤول هناك، وبيــن هذا وذلك لم نحصل على شيء، ومن وعدوا باستقبالنا من المسؤولين في ماريوبول اختفوا. الروتين اليومي مستمر.. قرّرنا أخيرا الذهاب إلى هناك دون تنسيق مع أحد، فقط نذهب ونرى ونحاول تنفيذ ما يجول في أذهاننا في تلك اللحظة.

كان أنســب وصف للتقرير الذي سأســرد قصته هو "تقرير الصدفة"، ذلك لأننا ذهبنا إلى ماريوبول ولم يكن أحد ينتظرنا ســوى شخص كانت عيناه على مساعدات، فاصطحبنا معنا بعض الزملاء والمحسنين.. وصلنا إلى مكان إقامته ولم نجده فاضطررنا إلى انتظاره قرابة نصف ســاعة، وخلال هذه الفترة وجدنا أحد المارة من سكان الحي، وهو جار للشخص المقصود، فسألناه عما إذا كان يعرف مكان بعض القبور المنتشرة بين المباني السكنية، أو بعض ذوي الضحايا، فأجابنا: "نعم بالقرب منا، وقد دفنتهم بيدي".. يا للصدفة! سألته ما إذا كان لديه أي اعتــراض علــى التصوير معه بعد أن يدلنا على تلــك القبور، فأجابنا ثانية: "بالطبــع لا اعتــراض؛ تعالوا معي". ومن هنا بــدأت الكاميرا تعمل، ووثّقنا كل كلامه والطريق إلى القبور المجهولة وســط المســاكن.. كان عليَّ أن أوثق كل شــيء، فأنا هنا دون تنســيق مع أحد.. دلَّنا على قبر مشترك لسيدتين قتلتا أثناء القصف (لم يبلغنا ما إذا ما كان القصف أوكرانيًا أم روسيًا)، بعض المارة عرفوا لماذا نحن هنا فدلونا على قبور أخرى وســط المســاكن.. كانت عديدة، بعضها بلا شاهد ولا تفاصيل سوى تاريخ الوفاة.

انتقلنــا بعد ذلك إلى المقبرة الرئيســية في ماريوبول، كانت كبيرة ونصفها تقريبــا لمــن قضوا أثناء المعارك الأخيرة، كان المشــهد فظيعــا.. آلاف القبور شــواهدُها أرقام فقط، هناك فكرت في أن نجد عائلة تبحث عن فقيدها وســط هذه الأرقام التي قاربت أربعة آلاف، وبعد لحظات وجدتها. هنالك عائلة وسط المقبرة، وســط القبور الجماعية، لحقــت بهم فإذا بهم يحملون ورقة فيها رقم فقــط. أبدوا الموافقة علــى تصويرهم فرافقناهم، كانوا حيــارى يلفهم الحزن، فهم يبحثون عن والدة الســيدة التي يرافقهــا زوجها وابنها الصغير في المقبرة، كانت هي الصور التي أنتظر، رسمتها في مخيلتي ليكون للقصة وقع إنساني لا

غير، بعيدا عن السياسة ودوافع الحرب وآثار الدمار، هي الصورة التي أتمنّى الحصول عليها، لكني عندما وجدتني أبحث معهم عن الرقم 2923، شعرت بأن واجبي هنا لم يعد صحفيًّا فقط بل أصبح القسم الأكبر منه إنسانيًّا.. ساعة ونيِّف تمكنت خلالها من الوصول إلى المربع الذي يضم هذه الأرقام، لم تكن مرتّبة بشكل تسلسلي، وحين وجدت المكان ولأنهم كانوا بعيدين عني رفعت صوتي عاليًا وكأنني اقتربت من الظفر بشيء ثمين ومهم وكبير. ناديتهم فجاؤوا مسرعين، قلت لهم بمساعدة زميلتي المصورة التي ترجمت كلامي إلى الروسية: هذه الأرقام قريبة من رقمكم، لا بد أن نجد رقمكم هنا. استدار ابنهم الصغير وصاح: هذا هو، وجدته! كان شعوري في هذه اللحظات لا يوصف، ولم أعرف ماذا أفعل، التفتُ إلى المصورة فوجدتها تصور ما يحدث، ودققت النظر فوجدت عيناها من خلف العدسة غارقتين في الدموع.. يا إلهي ما الذي يحصل، نحن هنا من أجل عمل صحفي، تداخل كلُّ شيء؛ العواطف بالمهنة، والإنسانية بالصورة، لم يكن بأيدينا سوى توثيق ما يدور، وهو ما حدث بالطبع بعد أن تمالك أفراد الفريق واستعادوا توازنهم.

عدنا إلى دونيتسك في وقت متأخر، ومعنا ملامح قصة إنسانية كبيرة ومهمة.

الأسبوع الأخير

انتقلنا بعد هذه القصة أو "التقرير الصدفة" إلى مكان آخر داخل دونيتسك تعرَّض للقصف، كان الأسبوع الأخير من مهمتي هناك قد شهد ارتفاعا كبيرا في عدد القذائف التي استهدفت مناطق دونيتسك، ووصلت أول مرة إلى مركز المدينة حيث إقامتنا، في ذلك اليوم تعرّضت المقاطعة إلى قصف بأكثر من ستمئة وخمسين قذيفة حسب بيان السلطات الموالية لروسيا، وفي المكان الذي قصدناه تسبَّب القصف في مقتل مدنيَّيْن، ووقوع أضرار كبيرة، صوّرنا من هناك مقابلة على الهواء مع تسجيل بعض الصور الإضافية، وما إن ركبنا السيارة عازمين على العودة إلى مقر إقامتنا حتى رنّ الهاتف ليبلّغني الزملاء في غرفة الأخبار بالدوحة أنهم شاهدوا المكان وأثر القصف الكبير على الهواء، ويريدون تقريرا، فتركنا السيارة ثانية وعدنا إلى مكان القصف. في هذا الوقت كان عليَّ أن أختلط بالناس لأسمع رواياتهم وأتحسس آلامهم، ولا أكتفي فقط بتصريحات

أو بيانات السلطات. بقينا هناك نوثق ونصور تفاصيل حياة أناس خسروا منازلهم وآخرين فقدوا فردا أو أكثر من عائلاتهم.

المعلّمان القتيلان

بعد ذلك بيومين ذهبنا لتصوير آثار قصف مدرسة وسط دونيتسك أيضا، وعند وصولنا كانت هناك جثتان ملفوفتان بغطاء أبيض، قالت سلطات دونيتسك الموالية لروسيا إنهما لمدرسَيْن قضيا بهذا القصف أثناء تصويرهما دروسا وبثها عبر الهاتف إلى تلاميذهما. كان المشهد مؤثرا، وكانت هاتان الجثتان محور انطلاق التقرير.

بجوار جثتي المعلمَيْن رأينا سيارة ولمحنا داخلها جثة شخص فقد حياته متأثرا بشظية نتيجة القصف، فاقتربنا حذرين وصورنا المشهد، كنا نخاف من أن تسقط علينا قذيفة أخرى كما سقطت على تلك السيارة، فلا أحد يعرف متى تسقط قذيفة أو صاروخ استهدافًا لذات المكان، تماما كما حدث معنا في حي سكني آخر شمال دونيتسك؛ اضطررنا إلى تركه لأن قذيفة سقطت على بعد أمتار قليلة من مكان كنَّا فيه لتوثيق وتصوير آثار قذيفة أولى سقطت هناك وخلَّفت أضرارا مادية، وحينها ابتعدنا قليلا عن المكان وما إن فعلنا ذلك حتى سقطت قذيفة حملتنا على ترك المكان والذهب إلى مكان آخر أكثر أمنا.

هنا يجب أن أشير إلى أن أمن وسلامة فريق التغطية أهم من الخبر، وأن عودتهم سالمين إلى عائلاتهم التي تنتظرهم تقع ضمن مسؤولية المراسل، وعليه وهو يتحرك هنا وهناك لتوثيق ونقل ما يحدث أن يراعي ذلك كله، وبأدق تفاصيله. كنت آخذ في الحسبان مشاعر عائلات فريق التغطية المصاحب لي كمشاعر عائلتي التي حاولت في أيامي الأولى أن أخفي عنها أني دخلت الأراضي الأوكرانية حتى أبعد عنهم القلق وأتمكن من التركيز في عملي، غير أن المحاولة لم تستمر طويلا، خاصة مع بداية بث التقارير من خطوط المواجهة.

في المحصلة

الصحفي معرَّض في أماكن الحروب لسيل من المعلومات والأخبار المتضاربة، وعليه المقارنة بين الخبر الذي يصله والصورة، إن كان ثمة صورة.

كما عليه التأكد من تلك الأخبار عبر شهادات ومعاينات ميدانية، حتى يكون في مأمن من نقل أخبار غير صحيحة أو مغلوطة أو مبالغ فيها.

فــي بعــض الأحيان كنا نجد أخبارا رســمية تخالف ما تــراه عيوننا على الأرض، أو تخالف شــهادات المدنيين في الميدان، فكنا ننقل الخبر بروايتين؛ رواية رســمية وأخرى عن شــهود عِيان غالبا ما يكونون هم أصحاب التفاصيل الأدق والمعلومات الأوفر.

وهنا أكرر ما أومن به وأردّده مع نفسي دائما: إذا كنت صحفيًّا فعليك ألا تنسى أنك إنسان، وعندما تتذكر أنك إنسان فعليك ألا تنسى أنك صحفي.

هذا الكتاب

هذه تجربة جديدة نخوضها في مضمار التعريف بالإعلام مربوطًا بأعلام المراسلين ممن تصدّوا للتغطية في أجواء الحروب، وهو نمط من الكتابة الخاصة دعت له أسباب في مقدمتها:

- توثيق تجربة الجزيرة في جزء من عملها الذي لا تبارَى فيه وفقًا للمتابعين المحترفين؛ وهو القدرة على تغطية الأحداث المفتوحة، وما يتضمنه ذلك من شجاعة مراسليها وموظفيها، واستعدادهم للتغطية في أجواء الموت الرهيبة.

- تقديم تجربة حية بأقلام خائضيها ساخنة متدفقة؛ فقد حرصنا على أن يصدر هذا الكتاب في أجواء الحرب، ولمّا يخلع الزملاء الكَتَبَة خوذاتهم، ولمّا ينفضوا عنهم غبار الرحلة، ويتخلصوا من وعثاء سفر التغطية وأدخنة الجبهة المشتعلة.. باختصار لم يخلعوا لأمة الحرب بعد.

- ممارسة نمطٍ جديد من الكتابة التاريخية، فالصحفي وهو يقدم الحقائق من ساحة الحرب؛ يهيّئ فعلاً المادة التي سيستقي منها المؤرخ المحترف مادته غدًا، وأيّ كتابة عن هذه الأجواء التفصيلية لمؤرخي الغد تجعلهم يعيشون اللحظة أولاً بأوّلَ، ويفهمون سياقات الأحداث، فضلاً عن تعليلها على الوجه الصحيح.

هذه المادة ثريّة في محتواها؛ ثراءَ خبرة من شاركوا فيها، رجالاً ونساءً، وكسبًا مهنيًّا، وتمرّسًا بساحات العمل المخيفة التي يختصرها البعض في صفة المراسل الحربي تأثّرًا بترجمات سريعة، والواقع أن الصحفي المراسل أعظم من أن يكون مجرّد مراسل حربي...

يُقبل هذا المراسل على الميدان حقيقةً لا مجازًا، وحساباته المتيقّنة تقول إنه يمكن أن يكون من أول ضحايا هذه الحرب، نظرًا إلى خطورة المجال الذي لا تحميه فيه شارة الصحفي ولا مهنيته، فهو جدير بوصف شهيد المهنة الحيّ. يُقبل على العمل وفي ذهنه أنه يمكن أن يتحول إلى خبر عاجل، بدل نقل ذلك الخبر الذي يترقبه المتسمِّرون أمام الشاشات.

يُقبل بقلب قويّ، هو قلب الإنسان الذي يرى عنف الإنسان على أخيه، ويرى حرص الطرفين على القتل، إن لم يكن التشفّي، ومع ذلك فهو يملك من القوة النفسية ما يجعله يقف مع نقل الحقيقة دون أيّ نقص أو تلوين، فهو بهذا يستحق وصف الشجاعة الصحفية الحقّة.

ثم، وهو ينقل تلك الأحداث، لا يغيب عنه قلب الإنسان الذي يذوب حزنًا وكمدًا على ضحايا الحرب من بشر يُقتل وشجر يُقتلع وبناء يُدمّر وأرض تُحرق.. وباختصار حضارة تنهار كلّ أساساتها، فلا يملك إلا أن ينحاز للإنسان وقضاياه، فهو بذلك يستحق وصف الصحفي أو المراسل الإنسان.

ولِمَ نستطرد في الوصف والتعليل؟! وبين أيدينا مادة هي خير ما يوضح ما نرمي إليه في هذه التقدمة العجلى، فعودوا إليها مستأنسين لحديث، ومنفعلين بحقائق، ومعجبين ومقدرين لشجاعة كتابها.. ففيها مغناة عن كل وصف، وغناء من كل تقرير أو تحرير.

د. محمد المختار الخليل

studies.aljazeera.net

مركز الجزيرة للدراسات
ALJAZEERA CENTRE FOR STUDIES